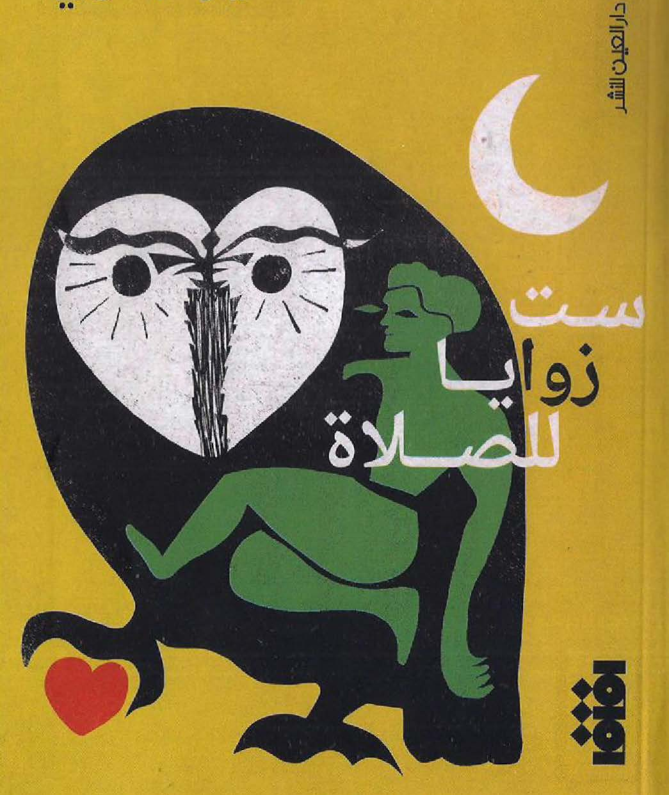
أميرة بدوي



ست زوايا للصلاة

قصص

أميرة بدوي



إلى كعبة سيدي علي

انزلْ على الجرح المخضَّب يا ندى
رطِّبْ مراقدَنا الأليمةَ يا ندى
وادْعُ الصخور لترحم العظم المهشَّمَ يا ندى
واتركْ بنا رمقًا هزيلًا يا ردى

محمد عفيفي مطر

المحتويات

البُومة

في شرْع قطَّاع الطُّرق، القتل ممنوع في الأشهر الحُرم. سيدي عبد الرحمن، رئيس المجلس، قضى بذلك، وأمرُه سيف على رقابنا جميعًا. كل أسبوع ينعقد مجلس قطَّاع الطُّرق، يجلس سيدنا على دِكَّة في المنتصف، وبالقرب منه المستشارون، بينما يتناثر بقية الناس حوله، يستمعون لنصحه وإرشاده، وينهلون من علمه الواسع. إذا أراد أحدهم أن يكسر رقبة إنسي، أو يسرق أجله، أو روح أحد أبنائه، يقدم طلبا إلى المجلس، ويرفق الأسباب الحقيقية وراء ذلك. الأسباب الحقيقية، لا شيء غيرها؛ لأن سيدنا، سيد العارفين، يستطيع بنظرة أن يفقسه، إن كذب، أو أراد فسادًا في الأرض. بعد انقضاء الأيام المباركة يتفضل المجلس بالحكم النهائي، في جلسة الفصل. لكن حسين لم يستطع الانتظار؛ دخل المجلس من الباب الكبير يحمل كفنًا. تعجب الحاضرون من فعلته؛ لم يجرؤ أحد على كسر القواعد، حمْل الكفن

يكون في جلسة الفصل وليس قبل ذلك، وليس في الأشهر الحُرم. دخل حسين بخطوات ثابتة، عيناه على الدكة الكبيرة، لم يأبه لسباب الحاضرين. بصقة في منتصف وجهه أوقفته لثوان، لكنه أكمل الطريق حتى وصل إلى سيدنا، وركع أمامه في خشوع.

"أنت هتكفر؟"

"إيدك أبوسها يا سيدنا، استر علينا، ربنا ما أمرش بالفضيحة".

حسين لم يكن يريد قتل سَنية، أخته التوأم. لكنها وضعت وجهه في الوحل، لم يعد له وجه من الأساس، أكله الناس بأعينهم. أخته الأرملة في عز شبابها، "لهطة قشطة"، رفضت الرجوع إلى بيت أبيها، وقالت إنها ستربِّي صغيرتها في بيتها. لم تكتفِ ببيع الخضار والفاكهة على باب بيتها، بل اشترت عربة بحمار، أخذت ثمنها من حسين نفسه، وسرحت على حلّ شعرها، تنادي بصوتها الحلو، فيخرج الرجال قبل النساء، ليذوقوا خضارها المسكّر، الطازج. بالأمس سمع حسين همسًا يدور حول أخته، همسة تؤكد إنها امرأة عَزَبَة، كيف يتركها أخوها هكذا، وهمسة تؤكد إنها ابنة ليل، تستقبل الرجال في الظلام، عندما تنام ابنتها ويهدأ نقيق الضفادع، تسكن أعين القمر. اقترب حسين من سيدنا، وبكى بين يديه، يطلب السماح، والتخلُّص من هذا الحِمل. كيف ينظر الناس في وجهه، كيف يستأمنونه على أبنائهم في المدرسة، لا يريد وصمة العار هذه، يقول لسيدنا إنه سيربي

الصغيرة، لن يجعلها تشعر بالفجيعة. "أرجوك يا سيدنا، اقبل الكفن، ربنا ما يرضاش بالفضيحة!".

اجتمع سيدي عبد الرحمن بمستشاريه في غرفة القَول، هنا لا آذان، ولا ألسنة تبوح بسرٍ. قدرة المجلس مربوطة بتنفيذ الأحكام، من يحكم بقبض روح يقبضها بيده، يخنقها أو يذبحها. من يقضي بسرقة بهيمة يفك أحبالها، هذه شريعة المجلس، الكل يعرفها، ولا يشرك بها أحدٌ.

في الغرفة بدأ أحدهم القول بأن الله يغفر الذنوب جميعا، قاطعه آخر: لكنها تغوي الرجال. اقترح ثالث: نزوِّجها يا سيدنا، وربنا أمر بالستر. واستمرت المداولات ساعة كاملة، قضاها حسين وعيناه في الأرض، لا يستطيع رفع رأسه في المجلس، ولا أحد تفوَّه بكلمة معه. أيا كان قرار المجلس لن يعارضه، هناك شيء داخله ينهاه عن قتلها، ربما تكون مظلومة، لكن كيف تكون، وهي امرأة، تجلس وسط السوق بجلبابٍ ملون، لا تعصب رأسها بوشاح أسود، ولا تخجل من عينيها الزرعية، وقوامها الممشوق. لابد أن أحدًا رآها مع رجلٍ، ربما يكون جارها المسن، ينط على السطوح المستو ويتذوَّقها كل ليلة. وربما يكون حبيبها الأول الذي طلَّق زوجته منذ أسبوعين. ظن حسين أن سِلفتها وراء تدنيس سمعتها، تهيِّج الناسَ عليها؛ وتخاف على زوجها من حلاوتها. الأصوات! الأصوات تصرخ، مرة لها ومرة عليها، ومرة تعيده إلى قاعة الفرن في البيت، حيث لعبا مع إخوتها البنات. كان يقسم بأنه رجل، لن يهزه شيء، مثلما يقسم الآن، يفلقس فتركب

البنات عليه واحدة تلو الأخرى، وبعد غمزةٍ من سَنية لأختها الصغيرة، تزغزغه من بطن قدمه، فيطوحهن جميعا، تخرج سنيّة لسانها وتقول "يا خِرع"، يشتاط منها، يكيد لها مثلما كادت. يخرج إلى الطريق ويحضر صباع فحم، وعلى الحائط يرسم لعروسها الجميلة ذقنًا وشنبًا، ويجعل قدميها مشعرتين، تصرخ سنية وتركض وراءه وسط ضحكات البنات، ولا يمضي وقتٌ حتى يتصالحا، ويمرحا تحت النخل وحدائق البرتقال. شيء داخله يدعوه للهرب من المجلس، لكن قُضي الأمر، غيبها الآن مكشوف داخل جدران هذه الحجرة، إذا قُضي بقتلها، فلن يستطيع أحدٌ منع الأمر، إنسيًا كان أو جنيًا، فقضاء سيدنا نافذ، لن يغيره الهروب، لا يجوز أن يتراجع عن الطلب. إن فعَل ذلك سيُخرج سيدنا الفِرفر ويفجِّر رأسه في طرفة عين. ماذا يدور الآن في الغرفة؟ سيدي عبدالرحمن ومستشاروه استمعوا إلى رأي علّام القاضي بموتها، فلا حرمة تفوق الفضيحة، ورتّل بعد ذلك قائلًا "اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ"، لم يعلن المجلس اسم علّام عندما قضوا في طلب حسين. سمع الخبر ولم يقل شيئًا، حبّ على يدهم في صمتٍ وخرج مبلولًا إلى بيته، وأقام الليل إلى طلوع الفجر.

مع أول شعاع للشمس يحط في فَسَحتها استيقظت سنية، فطّرت الحمار وصغيرتها. ارتدت المحروسة ملابس المدرسة وسبقت أمها. حزّمت سنية

وسطها، وضعت الأقفاص على العربة، شدت لجام الحمار ونادت طول الطريق "لا تين يا عنب، ولا بلح زيك"، الخضار الطازة". ترمي السلام على طوب الأرض، يحبها الأطفال ويركبون معها، تعطيهم البلح والعنب من العدّايات الطازجة، وتوصيهم على صغيرتها. تصل إلى المعدية. يساعدها المراكبي في ترويض حمارها الخائف، ويتناولان الإفطار معًا. في السوق فرشت زرعها، على مرأى من علّام، الذي انتظرها إلى أن فرغت وعادت إلى بيتها مع غروب الشمس. كان معها عندما اشترت خضارا جديدا من وكالة الخضار والفاكهة من البلدة المجاورة، كان من الممكن أن ينقضَّ عليها في الطريق بين البلدتين، لكن دائمًا يظهر شخص يفسد خطته. في المرة الأخيرة كانت الصغيرة معها، وظلتا تغنيان طوال الطريق، وعلّام يغني في الخلف معهما.

بعد نصف الليل نطّ بيتها، كان يتكون من طابقين، وفسحة واسعة في الطابق الثاني، تضع فيها سنية قصاري الورد والصبار. في الطابق الأول غرفتان، غرفة لها وغرفة لصغيرتها. توجَّه علّام إلى غرفتها، وكأنه نط هذا البيت من قبل، وعاش فيه زمنًا. كان الباب مواربًا، وسنية ترتدي قميصًا أسود، طويلًا يشف بياضها، تمسك جلباب رَجُلها الميّت وتشمه، تهمس إليه "اوعى كدة، زعلانة منك"، يسيح علّام تماما وهي تهمس بنَفَس دافئ "زعلانة منك"، كاد أن يسقط السكين. أراد أن يراضيها ويمسح دمعها. وسنية تقول لزوجها إنها على العهد، تكرمش جلبابه وتضعه أسفلها، تقبله، وتتلوى فوقه بدلال، وعلّام يشعر بنار في جسده، ودم ساخن يفرد أعضاءه.

ينقض عليها، يسقط السكين عندما يلامسها، يضع كفه على فمها، يمسك جلباب زوجها ويخنقها، تعافر. تدير وجهها إليه، بنظرة من عينيها ترجوه ألا يفعل، يغمض عينيه ويلف الجلباب على رقبتها حتى تخرج روحها ويسكن جسدها الفائر.

لم يذهب علّام إلى دوار سيدنا، فضّل أن يصعد الجبل، ويجلس تحت القمر المكتمل. القمر سيء، كسلان، لا يخيف الذئاب والعقارب، لا يشعر بالخيبة أو المبالاة تجاه شيء. مشى علّام مرتخيًا، ينظر إليه مزدريًا؛ لماذا خلق الله القمر! جلس بعيدًا عن الغرزة الصغيرة التابعة للمجلس، لا يريد أن يرى أحدًا، دائما يجلس هنا وحيدًا، يدخن المعسل في خشوع. في هذه اللحظة احمرَّ القمر وكشف عن وجهه الآخر؛ نار تحرق من ينظر إليها، وعلّام ينظر إلى ناره المشتعلة في الأرض، يرى أعينًا واسعة، مدورة، تبحلق فيه، كأنها تريد أن تقول شيئًا، تريد أن تعريَه أمام نفسه. لا يعرف ماذا يفعل الآن! ماذا سيفعل سيدنا إن علم بما حدث، سيحمل العار ويورّثه لأولاده، يفقد بيته ونظرة الناس إليه. ينظر إلى النار وإلى عقرب يريد أن يلسعه، يغرس فيه سكينًا، ويقربه من ألسنة اللهب، فتأكله، وتأكل الأعين التي كانت تحملق. يقرر الرجوع إلى بيت سنية، ربما يصلح خطأه. على الفور هرول إلى بيتها، ونطّه مرة ثانية. كانت نائمة جوار صغيرتها، ربما رأت الصغيرة كابوسًا مخيفا جعلها تصرخ، فلم تهدأ إلى في حضن أمها، وربما أرادت الأم وداعها. انتظرها علّام على السلم حتى قامت، اختبأ في الطابق الثاني عندما رآها تتجه إلى الفسحة، تقف في الشرفة وتشاهد القمر الأحمر، وجواره نقطة برتقالية تلمع بشدة، تشد روحها عاليًا؛ ترتفع بها قبل موتها، فلم

تشعر بظل علّام خلفها، عندما تسلل وقتلها للمرة الثانية.

احتضنها علّام حتى لامس جسدها الأرض، بكي في حضنها، ارتجف؛ لم تستحق الموت. حاول أن يغلق عينيها ويتلو القرآن على روحها، لكنها رفضت. اتسعت عيناها عن آخرها، اعتقد علّام أنها ترفض الموت، تقاوم لمرة واحدة، لم يُرِدْ للأرض أن تنهش لحمها، حاول إنعاشها، قرَّب شفتيه من شفتيها وقبَّلها، نفخ في فمها، وضغط على نهديها، لكنها لا تعود. أمرها عجيب. حملها على ظهره، وقرر الصعود مرة أخرى إلى الجبل، وكان يبكي طوال الطريق. كل ما يشغله الآن أن يدفنها، ويضمن لها حسن الخاتمة. وصل إلى مجلسه بالقرب من العقرب، حافظ على جسدها دافئًا، غرس رأسه في الرمل، ثم قام وصلى ودعا الله أن تصحو. بكي في السجود كثيرًا، وسنية لا تريد القيامة، وفي الصلاة أمره الوحي بتركها. تركَ الصلاة وقبَّل رأس سنية ويدها. أمسك السكين والتهم العقرب. قطّع جسدها إلى أربع قطع، وضع كل جزء في مكان بالجبل. ذهب إلى الغرزة ليغتسل، وصلى صلاة الرجوع، قرأ ما تيسر على ماء الغُسل. أخذ المياه إلى غرفة نظيفة. تطهَّر من الذنوب التي اقترفها، ربما يستجيب الله وتنبت في جسدها روح. في الصلاة بكى كما لم يبكِ قاطع طرق. تذكَّر كل روح قطفها، كل بيت نط، وامرأة. لم يفرغ من الصلاة حتى آتاه صوتها، صوت اشتعال الروح في الجسد؛ عندما قامت سنية، على غصن شجرة، أبصرت العالم بعينيها الواسعتين، لكنها لم تكن رحيمة، كان في صدرها نار، ومن يومها.. تلبد وراءه في كل شارع، تطارده، وتهدُّ بصوتها الباكي.

العِرْسَة

الغرباء، يوم السبت، قليلو البخت. بخطوة واحدة على أعتاب البلدة يعرفون أن النور قد حل؛ غيطان غلة، قرص شمس، فطير مشلتت، والكحل ممزوج بالفلفل والزيتون. "بركاتك يا سيدي خالد". البلدة بأكملها تدق الأهـوان، والغرباء يصطفون على جفنها في شـارع طويل يصل إلى مقام الشـيخ ويلتف حول الجبانة. يعرضون الغوايش والحناطير البلاستيكية، الحمص والحلاوة والطراطير. يصطفون كغيرهم من أبناء البلدة بالأكواز الملونة أمام أواني النابت الكبيرة، يشربون الشـاي الأحمر وسط الذاكرين والزوار. وفي السُرادِقات يعلقون فروع اللؤلؤ، يلمعون البنادق والأباريق، المراجيح تهتز بخفة مع خصور النسـاء في البيوت، وفي البيت المطل على شـجرة الجميز، تصفق البنات لحميـدة، البهية، وهي ترقص على أطراف أصابعها، مع نقرة الطبلة المشـدودة على النار. إيشارب من الحرير يطوق

خصرها، وقرصات في ركبتها جعلت أمها تتأمل جمالها من بعيد، بينما الجدة تنهر حفيدتها، لتمنع نظرات البنات عن جسدها، صدرها الفائر وقدميها الشهيتين. "الصلاة على الزين".

دخلت حميدة غرفتها، قفلت الشبابيك والستائر، ناولتها أمها طبقًا مملوء بتراب الموقد، مكحلة صغيرة وريشة حمامة. في البداية كانت خائفة، مثل كل مرة، تأففت. قالت: "لماذا ينبت الشعر هنا؟". تستغفر ربها. تتذكر كلمات أمها: "مع أول شعرة يسير النمل تحت جلدك، ولن تشعري بشيء". تتشجع. تنتزع شعيراتها السوداء، ثم تدهن الكريم. تقف أمام المرآة عارية، تمسك الريشة وتمررها على شفتيها، تضعها في المكحلة، تلاحظ حلاوة رقبتها الطويلة، حلمتيها البنيتين، فرجها، وساقيها البيضاوين. أشبعت عينيها بجسدها وأخرجت قميص نوم من كرتونة تحت السرير. كان أبيض، وكانت عذراء. صوت الذاكرين يطوف حول البيت، وصوت أمها أشاط أذنيها؛ على الحلوة أن تذهب إلى شادر الذكر لتقدم النذر السنوي. ارتدت ملابسها، خرجت تحمل الشاي والسكر، وكوز بلاستيكي أزرق، ومشت جوار جدتها، وسط الغرباء والمولد.

ضجيج الشارع الترابي، وظل كبير يتخطى السُرادِقات والفرشات، ظل عرسة، يأكل السيارات والحناطير البلاستيكية، يشم أكواز البطاطا المشوية، يملس على تلال الحمص والحلاوة، بأذن عريضة تلتقط خطوات حميدة، ومخالب مدببة تتبعها، ترقبها وهي تدخل مقام سيدي خالد. أعين

صغيرة سوداء وسط الذاكرين ترصدها بالكوز الأزرق الممتلئ بالنابت، تقترب منها وتمص الهواء من حلقها، فتقع على الأرض وسط الضجيج والذكر، وصراخ جدتها، وحبات النابت المختلطة بالطين. تجزع الأم لما تراها برمش منحول، وعين ضاع كحلها. ذراعاها متدليان، ورأسها نائمة في أحضان شاب يحملها، وفي الخلف الشبان والنساء يشيعونها، وظل العرسة يحوم حولهم.

سرير من الصفيح تمدد أعلاه حميدة، جسدها شاحب ومبقع، آثار حبل على عنقها، عروق زرقاء نافرة من جفنها وخربشات على ظهر يدها. أمام عينيها الشاردتين مرآة ملصوقة بالجرائد، ودولاب يحمل أوزارًا من الكراتين والخزف، حيطان الغرفة زرقاء ملطخة بالناموس، وعروق السقف كافور أبيض. الأم تطل عليها كل حينٍ، بطرف ملعقة تبلل شفتيها بالماء والسكر. والليل على وسادتها، رضيع لا يشبع، بأذنين مشمعتين وعينين مطموستين. حميدة ترقد في الزرقة. لا تستطيع أن تهز طولها، لا تحرك يدًا أو ساقًا. ترى نفسها في المرآة عارية رغم الجرائد، روح خفيفة تلبسها وتعدو داخلها، فتعفر صدرها بالغبار وتسكن ذرات التراب حلقها. تريد أن ترشف الماء، تتعرق، جسدها يبتل. تشعر بأنفاسٍ دافئة على وجهها وشفتيها، صوت يأمرها أن تفتح ساقيها، قرْصة في حلمتيها تجعلهما تنتصبان. ينخسها شيء، يوجعها، تصرخ، تريد أن تصرخ، تدخل أمها لتطمئن عليها فتجدها مبتلة، ساقيها منفرجين وبقعة دم أسفلها. تضرب الأم صدرها. صوت التعديد

طغي على الذكر، التفت العائلة حول حميدة، اكتفى الأب بنظرة جامدة إلى بقعة الدم، وحميدة ترشف الماء. ترقيها جدتها "عيني عليكِ باردة"، والعين فلقت الحجر، العين عنيدة.

في الصباح، اشترت الأم الشابة والفاسوخ، دخلت على حميدة مع الجدة وجارة عجوز، جلسن على الأرض حول قَصعةٍ من نحاس، استلقت حميدة في حجر أمها وظِل العرسة في المرآة. قامت العجوز برقيتها فانفرجت الأشداق. صنعت العجوز عروسًا من ورقٍ، وبإبرة منجّد نخستها "من عيون الأهل والناس"، عيون المولد والأغراب، "ومن كل عين شافتك ولم تصلِ على النبي". لم تترك الجدة مكانًا في العروس دون نخسة، وعلى نار القصعة أشعلت الشابة والفاسوخ، ورمت العروس وهي تتمتم بالأدعية. أعين الأم والجدة لا تفارقان العروس المشتعلة وهي تلتف حول الشابة والفاسوخ، تتكور ويذوب رفاتها على هيئة عين. تصعد روحها مع الأبخرة، والأم لا تطيق الانتظار، والعجوزان تقرفصان حول القصعة بجلاليب سوداء سفرتها من الحرير اللامع. وأخيرًا تكشف الجدة عن ساق حميدة، بينما تخرج العجوز الشابة والفاسوخ التي بدت مثل بالون مصفود، مثل عين سوداء لا تزال تحدق، ويلمع بؤبؤها. تدهسها حميدة بكعبها، وتدغدغها الأم بغل ثم تلم الرفات في سرة سوداء، تعطيها لصغيرها ليرميها في المولد، وتأمره ألا يكلم إنسيًا أو جنيًّا في الطريق، أو في المولد، قبل أن يتخلص منها.

مشى الصبي في المولد. الناس يطوحون الذكر للعابرين، يؤنسون الأموات

والجديان على أسـوار الجبانة. نساء يشترين الحلي لبناتهن، وطراطير تزين رؤوس الأطفال والشيوخ، وبندقية تبحث عن قناص. الصبي الذي حمل الأمانة يجيد النِشَان، يسير بخطى سريعة، يبحث عن مفترق طرق يبتلع السرة السوداء. الصبي التزم بالعهد ولم يكلم إنسيًا ولا جنيًا، وكلم تلك العجوز.

كانت تتعقب سُرَّته. تسير وسط الجموع بعباءة سوداء، وحلق في أنفها. رأته عندما أسقط السرة بين فكي ظل العرسة الوخيم، ومشى متباطئًا جوار أتلال الحمص والحـلاوة، وانتظرت الصبي. اقتنص صورة من صاحب النشـان، وعاد باهتًا إلى البيـت، والعجوز دَوَّادة بدوية تتطوح مع صوت الشيخ ياسين التهامي:

"قَوْلِ المُبَشِّرِ بعد اليأس بالفرَجِ
لكَ البِشارةُ فاخْلَعْ ما عليكَ.

حميدة ما زالت شاردة، والنسوان يجلسن على حصير أمام البيت مع أبيها. الدَوَّادة تتعكز على الصبي، رأتها النسوة من بعيد فعرفن أنها البشارة، قالت: "بنت بنوت والدود سكنها". الأب تورد لّما سمع أول الخبر، والدَوَّادة تعرف الطريق لغرفة الصبية. أجلستها علـى الأرض في وضع القرفصاء وقالت إن الأرض أمُّنا. كشفت رأسها، ثم ملّست أسفل ظهرها إلى عنقها، ومن صدرها إلى رأسـها. اقتلعت شعرة سوداء من شعر حميدة، طقطقت

كالملح. شدت أذنيها، وأمرت الدود أن يخرج من فمها وأنفها، فسال في كفيها، وحميدة.. حميدة تحشرج صوتها واحتقن وجهها، ضربتها الدوادة على ظهرها، فقفزت عرسة بدينة من فمها وهربت بعيدًا. ظل العرسة على الجدران سرق أعين النسوة لوهلة، ولمّا التفتن إلى حميدة وجدْنها تزبل في غمضة عين. صار لحمها الشهي عظمًا، وشعرها الطويل تساقط، شاب سواده، وانفضّ المولد..

النَّعْش

في عز الصيف. انطفأت نقرة الظهيرة على خرطوم جدتنا، وجلسنا أمام البيوت على حصائر من البلاستيك، نشرب الشاي؛ عندما جاؤوا زمرًا، أرجلهم أعرض من الحطب، وفوق رؤوسهم البُوم. بدوا كوحوشٍ لها رأسين، تمشي على أربع، تعفر الهواء وتحيل الزهور ترابًا. التقطنا الفؤوس والشوم بينما حمل الأطفال المناقر. لم يتزحزح أحدٌ منا. نراقب الطريق وأعيننا في نصف رأسنا. كلما اقتربوا تنفلت – من أيدينا – الأسلحة، وتنبهنا النساء – من خلفنا – أنهم بشر. رأيناهم مرتعشين، أنفاسهم متقطعة وملابسهم مغبرة. ضَيَّفْناهم في المندرة الكبيرة، وسقعنا لهم ماء المِعْين. وعرفنا أن قريتنا هي الوحيدة الباقية، وهي الملاذ الأخير. قالوا لنا إن هناك وحشًا حط على بلادهم. سلعوة، تزحف فتطيّر التراب من تحتها، وتدخل البيوت والقبور. قالت امرأة: إنها ليست سلعوة، بل نجمًا سقط من السماء، داخله وحش برأس طويل، يمسك سوطًا ويضربه في الطين،

فيسوّد الأرض ويجلد ظهور الرجال. البنات قالت إنها أمنا الغولة والنساء قالت إنها أم قويق؛ نسجت من الأرض سحابة صفراء لتختبئ خلفها، وعندما يأتي الليل تدخل البيوت وتخنق كلّ من فيها. لكن الرجال قالوا بحكمة "ربما يكون زلزالًا هز الأرض وابتلع البيوت ومن يعمرونها"، لم ير الناجون شيئًا والذين رأوا لم ينجوا. تضاربت الأقوال، وبتنا ننتظر المجهول القادم.

ثلاث ليال ونحن نستقبل الوافدين من البلاد البعيدة. لم تتسع لهم المندرة ودوّار المناسبات، فأقمنا سرادقًا كبيرًا وسقفناه بالجريد والقش، ونثرنا فوقه الطين وأقراص الجلة. ولما زادت أعداد الناس، بات كل فرد يصطفي منهم من يصلح للأخوة، فيتقاسم الدار والأرض. بعض الوافدين فضّلوا الرحيل إلى بلاد أخرى وراء النهر. وفي اليوم السابع استقرت الأمور، ولم نستقبل وفودًا جديدة. ولم يغادر البلدة أحد من أهلها. خرجنا جميعًا إلى الأرض، نسمدها ونعزقها وننقر غيطان ذرة جديدة. نثرت النساء بيوت الملوخية، وزرعن الفاصوليا وشتائل الكرنب. تبادل الأطفال حكاياتهم عن المخلوق الغريب. كان الجميع يجلس أمام السرادق الكبير، يشربون الشاي، عندما طل برأسه للمرة الأولى من فوق أول بيوت البلدة. كان ثعبانًا عملاقًا، بزبيبتين على جبهته. شجاعًا، ترك الناس يهجرون بيوتهم ثم التف حولها وابتلعها كاملة، ونزل إلى الأرض في سلام. لم نر أصحاب البيوت ثانية، استمروا في الهرب وقفزوا في النهر، مع البهائم التي هاجت

وهدمت جدران المرابط. وفي المسجد، ارتفع صوت المؤذن ليجمع الناس في الجرن الكبير، فهرع الجميع وبأيديهم الفؤوس والسكاكين. لا يعرفون كيف النجاة. الشباب يقترحون المواجهة، والشيوخ يفضلون الهرب. اقترح أحد الشباب حفر خندق عميق، يحميهم من شر هذا الثعبان، هنا تدخلت. اقترحت أن ننصب فخًّا، نختار الأقوياء ونسلحهم بالبنادق والفِرد، ويلبدون في أبراج الحمام، وما إن يظهر حتى يبندقونه في رأسه، وننهي هذه البلوى. على الفور تطوع تسعة رجال غيري، وسهرنا طوال الليل نخطط ونراقب الطريق.

في الصباح تسللنا وبنادقنا فوق أكتافنا. كنا حذرين. بالكاد نلمس الأرض. لكنها اهتزت فجأة: وسمعت دعوات تعلو من كل مكان وقرآنًا يتلى عندما خرج الثعبان ولامس السماء. لم أستطع النظر في عينيه طويلًا، كانتا وحشيتين، وفيهما مقبرة كبيرة. نفخ الثعبان في البيوت والأبراج فانهدمت. كنت ألهث، ولا أرى من السماء سوي زبيبتين، جسدي مغروس في الأرض والتراب ينهال من فوقي، لا أستطيع السعال. خشيت أن أبصق روحي، لو جاءني ملك الموت الآن، لو أتاها بورقة من الجنة... شعرت بنمل يأكلني، كنت وحيدًا، أسمع ضوضاء الأمس في رأسي، وصلوات تأتي من بطن الأرض، ويد تنبش التراب من فوقي، من ربي؟ ما ديني؟ ومن النبي الشافع؟ كان قويًّا، انتشلني من الأرض ورفعني على كتفه. غسّلني بالماء البارد. اسمه سيِّد، رفاعي جاء من أرض بعيدة، على حس هذا الثعبان، وصار أملنا الوحيد في الخلاص.

عرفت كرامات سيّد ومناجاته للثعابين والأولياء. كان صغيرًا عندما رأى كبشًـا يطارده، يسير خلفه في الطرقات، بين الأشجار. وفي العتمة، اقترب منه وتمسح ببنطاله، ثم دعاه إلى مقام أحد الأولياء. كان يعرف هذه الأصوات، يسمعها دائمًا عندما يقترب من الأرض، ويخلد إلى النوم. لم يشعر بجسده عندما تمايل معها، رأى أناسًا من نور يتوسطون حلقة من العارفين، ينشدون، يصفقون، يرقصون. حتى أتاه أحدهم، ولقنه العهد في حضرتهم. على مر السنوات، حوى ثعابين كثيرة، ثعابين بثلاثة رؤوس، وثعبان برأس قطة، وثعبان خُتم على جلده اسم الله، لكنه لم ير ثعبانًا عظيمًا كهذا. يخنق الأرواح وينفخ في الأبراج ويبتلع البيوت والقبور. كنا نسير في البلدة على مرأى من الناس. لم يسألني أحد منهم عن الباقين؛ عرفوا وحدهم أنني الناجي. مشوا خلفنا إلى الجرن الكبير، وبأمر من الرفاعي تسلقت نخلة، وأذنت في الناس: الله أكبر الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، ردد سيد الأذان من بعدي، أشهد أن محمدًا رسول الله. أتت الناس من كل صوب، ترتص للصلاة، حي على الفلاح، والفلاح في صلاة سيد. نزلت من النخلة ووقفت في الصف الثالث، كبر سيد ثم أمسك فأسًا وضرب الأرض ثلاثًـا. كانت عنيدة، لم تنصدع ولم يخرج منها نور. بدأ في التمايل فتمايلنا في صفوفنا. نفخ في ناي مصنوع من البوص. فأمنّا وراءه. كان صوته يعلو فوق الريح، يجذب السحالي والثعابين الوليدة إلى أوعية الفخار، في دائرة كان مركزها. ركع ثم سجد ثم نفخ في تراب الأرض، فعلنا جميعًا المثل، ولم يرفع أحدنا عين عندما انقض الثعبان والتهم رأس سيّد، وظل

جسده واقفًا يتمايل قبل أن يهوي. هنا عدونا هاربين وراء النخيل، ورأينا الثعبان يعود برأسه الكبير إلى تلك البقعة البعيدة.

لم تشرق الشمس منذ التهام رأس سيّد. تصلي الأرض والنساء من أجل شعلة نار في يد ليلى. تنير الطّاقات والجدران، وتغني مع النساء في حضرة أزواجهن، تهتز مع خصور العذارى وهن يملأن الأزيار. كنا نستمع إلى صوت ليلى ونتعسّس الجدران. لم يهرب من الرجال أحد، رغم السواد الذي عمّم رؤوسنا، وجعل خوفنا من الثعبان يمنعنا عن قضاء حوائجنا.

ليلى، ابنة أبي، تحب الجلوس على الجرف، في طفولتي أنتظرها مع الناي، يغنيان ويتبادلان الحكايات، ويطرق الليل الطبول. أما الآن بعدما فقدتُ الناي أجلس منهزمًا، أراها تأتي بطبق من الحساء، ومشنة فوق رأسها تحوي الخبز والبصل. تحاول الابتسام رغم ذلك. نجلس على الجرف، وأستمع لحكاياتها عن نساء البلدة، ومحاولاتهن لاستعادة رجالهن. نورا، ابنة العم، فقدت زوجها هناك، لكنها لا تزال تسقيه من مائها، وتشعل الشموع لها. تقول "كان يحب الشموع وقمصان النوم القصيرة". يحمر خديّ ليلى لكنها تتابع الحكايات، في الطريق إلى البيت، والليل كان صامتًا. رأيتني عند نخلة الصلاة، ورأيت ليلى مع حشد من النساء، عندما خرج الثعبان برأسه الكبير. حوطناه بخوف ثم ركعنا، دار بين الصفوف، شم روائحنا، وكلما فارق صفًّا حمد المصلون ربهم وكبروا، بينما تخفق قلوب الآخرين. من سيختار الثعبان. لا أحد يعلم.

"على أحد أن يموت"

صحوت على صوت جدي، وصراخ النساء وهلع الرجال، الثعبان يريد قربانًا. من منا سيموت قريبًا؟ البلدة كلها رأت نفس الرؤيا. انتشر الفزع بين الجميع، وخاصة بين النساء والشيوخ، ربع سكان البلدة من المعمرين. نسينا الموت ونسينا مكان القبور. بركة العمر والقلوب الطيبة. لم يمت أحد منذ عشر سنوات. عشرين، ثلاثين. خلاص! خلاويص. خرج الثعبان علينا ورأيناه جميعًا في الرؤيا. نراقب المسنين، نتأمل تجاعيدهم الكثيرة وخربشات الزمن؛ خطوطًا في جبين جدي، طرقًا كثيرة، متاهات أضيع فيها. أحيانًا أتمنى أن يموت العجزة والمسنين؛ يجلسون على المصاطب ينتقدون المارة، ويتناثرون في الطرقات، يلعبون السيجة، لا يفلحون الأرض ولا تأخذهم المدينة. عرفت أن شباب البلدة تراودهم مشاعري أيضًا، نشفق على المرضى والمجاذيب، ولا نتمنى الموت لأنفسنا. لم نرَ الحياة على وجهها الحقيقي بعد، لم نلبد في شقوقها ولم يحمل أحد منا آخر عنقوده. فماذا ينتظرون؟ لماذا لا يتركون أرواحهم تصعد إلى السماء، ويهدون البلدة طريق النجاة؟ لم يتمنَ أحدنا أن يخلّد في الدنيا، نريد أن نعيش نصف ما عاشوه فقط. كل ساعة كنا نعدهم، مرة واثنين وثلاث مرات فنجدهم على حالهم، لم ينقصوا واحدًا. ومع كل سعلة تخرج من صدر جدي آمل خيرًا، ومع كل سعلة تخرج من صدر أجدادهم يأملون خيرًا. بدأت شهوة الدم تسكن صدور الشباب، لماذا ينتظرون؟ إذا لم يستسلموا لمصيرهم سينفذون

إرادة الله بهم، سيقتلون أحدًا. أرى ظلالهم تمسك بالسكاكين والخناجر أسفل الأشجار. أرى أعينهم تشتعل بالدم، أنضم إليهم، نتربص جميعًا خلف الأشجار والعشش، أحضر أحدهم شوالًا من الخيش، وعقدنا النية على قتل أحدهم. من يمر الآن منهم سيكون القربان، سنقيم له مولدًا كل عام، ونعده من أولياء الله الصالحين. سمعنا جميعًا صرخة، صرخات تأتي من أهل البلدة، فعرفنا أن أحدًا غادر الحياة أخيرًا.

كان وجهها كالثلج، تستلقي بجسدها الخشبي على أريكة جدي، وأربعة من النساء يغسلونها بماء الورد. ويمشطن خصلات شعرها في دلال. ليلى الجميلة، طفولتي التي أعرفها، غنوة الجرف والناي، صوت الليل في صدري، امرأة تحشي فمها بمنديل أبيض، ويحزمونها من وسطها، ومن رجليها، ومن صدرها. كلما نظرت إليها اختنقت. التراب يتسرب إلى أنفي وفمي، أسعل، أبكي وأنا أحمل نعشها، والرجال من خلفي يحملون شعلات النار، والنساء تشق صدورهن ليخجل ملاك الموت. وصلنا إلى نخلة الصلاة، أمسكت فأسًا وضربت الأرض ثلاثًا، ووضعت ليلى أمامي، أقمت صلاة الجنازة. لم أرفع رأسي عندما ظهر الثعبان في التكبيرة الثالثة، ونزل بها أسفل الأرض. احتضن ليلى الجميلة وأكل لحمها. سمعت صرختها قبل أن تغيب للأبد. لم يخرج الثعبان بعدها، كلما جاع ألقينا في بطن الأرض ميتًا جديدًا.

صرنا ننجب الأطفال من أجل ذلك.

الخِضر

يجدِل الحِبال كل عشية ويحرس قضبان القطار. عشرون عامًا يقرفص بين الحبال والمقاطف، بكتّفها، يلاعبها، ويغيّر من صورتها. من ليف نخلة عالية إلى خلخال في قدم بهيمة، ومقطف يسبّخ الأرض ويحُش ثمرات الكرنب. يقطف قرون الفول والفاصوليا أو يصنع من سباطة النخل مقشة. في ورديته يمر القطار ثلاثًا. المرة الأخيرة عادة توقظ أعواد الذرة من غفوتها، وتهيّج صراصير الحقول والثعالب، فيشعل النار في القوالح المرصوصة على شكل بيت في منتصف الموقد، ويزيد وهيجها بغلافتين، وأقضاب الأشجار التي قلمتها امرأته الهزيلة، التي تأتي بالغداء كل مغربية، مع طشت من الماء، تملؤه ابنتها انتصار من ماء مِعْين، لتكبه في الزير.

لا يعرف لِمَ تحب امرأته تقليم الأغصان، وتحزيمها بأوراق الموز المبلولة من ماء الترعة، رغم بخس الثمن. الناس تفضّل القوالح وشكائر الفحم.

ربـما عليها الاكتفاء ببيع البلح التي تجلبه من الصعيد قبل رمضان، وخبز الفائش والعيش الشمسي لأهل البلدة. لكنها لا تبلّ ريقه أبدًا عندما يطلب منها ذلك، وحجتها شِوار البنات: انتصار، وفاطمة. وسمر.

على مقربة من النهر، داخل كشك من الطوب الأحمر، محّره بكفٍّ، ولطس ألواح السقف وهذّبها، ومع ذلك فهي مليئة بالهباب والناموس، يجلس شِبْل على شوال يجدل الحِبال. قبل الثالثة يخرج من الكشك، يتجول بين الأشجار والمشــاتل المتناثرة حول المزلقان. يتفقد بضوء الكشــاف أشــجار النخيل الملوكي وعمة القاضي وينتظر تســبيح الكروان، وتبدأ مواويل الضفادع، تنادي على نبيها الخِضر، وتبتهل مع أذان الفجر حتى يعود إلى الأرض التي خرج منها. وقد تأتي نسـاء القرية وبناتها لتلحس جلد الضفادع فتفك عقدة اللســان وتعلو الزغاريد بالفرح والسحر. أما الأطفال فيرون إذا ما لمسوا جلدها مقاعدهم في الجنة أو في النار.

مع غروب الشــمس تبدأ ورديته، بنســمة خفيفة تخـبره بموعد مرور القطار. فيغلق المزلقان ويتفقد وجوه المسافرين، يلوّح لهم فيردون التحية. الوجوه تتكرر مع كل قطار، كأنها في سفر دائم، سوَّاحون في الأرض، لا محطة في انتظارهم. في كل مرة يمر فيها القطار يبحث عن النافذة التي يطل منها. عندما يهبط الليل، قبل عودة القطار، يتجول بين المشاتل، ليصل إلى عمــودي الإنارة الوحيدين إلى البلدة. لا يهتــم أحد بغرس العمدان هنا، ولا يحتاج الضوء النطّاطون وأصحاب الكيف والراغبون في الخلفة؛ الذين

يلقون نســاءهم أمام القطارات، فالموت حين يفزع أحدًا يقطع الخلفة أو يمد حبالها، ولله في أمره شـؤون. لم يصادف في الطريق أحدًا، ولم يســمع صوتًـا يعلو على صوت الضفادع. إلا امـرأة تلهث بين الحقول، وتصرخ بشـدة كل حين. حاول أن يتتبع الصوت، غرز بين الحقول المروية، إلى أن وصل عند خيط دم يبقِّع عيدان الذرة. سمع بعدها صريخ طفل، ووجد لفة من القماش مليئة بالدم، وسكينًا صغيرًا. ثم جاء القطار. سمع البوق الغاضب فجرى عائدًا إلى الكشك. ركض بين شتلات الصبار، تعثر بها، تمزق جلبابه القصير. وصل أخيرًا وأغلق المزلقان. ومن أمام الكشـك رأى ظل امرأة تلقي بوليدها على القضبان. صرخت بعدها، وصرخ، وصرخ القطـار أيضًا قبل أن يمضي في طريقه ويحل السـكون. تسـمر للحظات. جلس على الدكة متعبًا. مشى بخطى مرتعشة نحو القضبان. كانت صلبة وسـاخنة، بـلا بقع. خمـن أن المرأة لم تلـقَ بوليدها – رغـم عارها – ربما منعتها أمومتها.

نظف الكشك من الأحبال والمقاطف. نفض التراب عن سريره، طقطق الناموس بالمضرب، استلقى على الفراش. شرد في ألواح السقف ولم يلاحظ بقـع الدم على جلده المخضر. انزلقت قطرة إلى أنفه فاستنشـقها وكاد أن يبتلعها. قفز على الأرض منتفضًا. نفَّ وبصق وتمضمض بماء الزير. غسل وجهه وذراعيه ثم التقط المطوة والكشاف وهرع إلى الخارج. أين الدم، من أين جاء، أضاء بالكشاف شرق الكشك وغربه، وغدا يفتش في كل مكان،

إلى أن وجد على مقربة من النافذة ذراعًا مبتورة، كانت لا تزال مخضبة بدم الخلاص. ارتعش عندما أمسكها، ووضعها في شوال من الخيش. سار بظهر محني يجمع أشلاء الوليد، يشمُّ الأرض ويتلو الأذكار بصوت مرتعش. وجد حبل سرة مربوط بفتيل من الصوف. وقرر الذهاب إلى النهر.

حفر الأرض بالكريك، بذراعين واهنتين، لا تقويان على حمل رفات النهر. كان يرص أجزاء الوليد برفق، بينما تغسلها قطرات العرق والضفادع تشيعها بالتراتيل. أهال التراب عليه. من سيحمل دم الوليد، أمام الله، وأمام الحكومة؟ حمد الليل في سره كثيرًا، ولم ير الأعين التي تراقبه من بين الحقول. أعين سوداء بهالات بنية، تدور حوله وتتبعه، تنق في أذنيه، تلهث وراءه. تحاول أن تلمس جسده. الآن شعر بها. فر إلى الكشك، أغلق الباب جيدًا. زحزح الفراش وأشولة البلح وراءه.

كان جلده يخضر مع الوقت، يزحف إلى قدميه ورقبته. رأى ذلك فرفع الزير وكبه على نفسه، امتد الماء وبلل كل شيء: الأحبال والمقاطف وشكائر البلح المرصوصة فوق بعضها وراء الباب. خرج إلى العتبة. سمع أفواهًا ترتشف من ماء الزير، جلس في الركن يقرأ آية الكرسي. بلل ريقه بالأدعية الحافظة من شر كل شيطان وهامَّة، أو إنسان. لكنَّ صوتَه يعرِض، وقدميه تنشران. كل شيء في الحجرة يتغير، مروحة الحائط بدت كثعبان ملتف حول ثلاث بومات، تحدقن فيه. والأحبال تشكلت على هيئة مسخ، صنع مشنقة ورماها في وجهه، حملها الناموس العملاق وألقاها حول رقبته. ارتجف،

تمتم الصلوات وسمع صراخ الوليد.

صوت الوليد بوق، أعاد الأشياء إلى سيرتها الأولى. مسخ الأحبال تكوم في الركن، والمروحة تلف وتئن بصوت مزعج. مشى إلى النافذة. ألقى نظرة. دار حول الكشك والمشاتل والطريق، صرخ: يا أيها الصوت من أين؟ من الجهات الأربع، من السماء، ومن أسفل الأرض. سيعود إلى النيل ويشاهد جسد الوليد، رغم ثعالب الحقل التي تطل بأعينها. يظنها ثعالب ولم تكن كذلك. أعين سوداء واسعة بحَلْقٍ كبير، تنتظره وراء النهر. تهمس "تعال. عد إلينا". يصل عند النهر وينبش التراب بيدين متقوستين، ولا يجده بالأسفل. يسمع الهمسات ويدرك الأعين، يخرج أصحابها من الحقول فيرى حقيقتها. لم تكن بشرية تمامًا، لها قامات البشر وأجساد الضفادع، وكانت تقف بحزن كأنها تشيع الوليد أو تشهد نبش القبر. ضفدع يرتدي بدلة، وآخر يرتدي جلبابًا، وواحدة ترتدي فستانًا أنيقًا من الحرير. ضفدع يمسك منجلًا في يده، ويبدو غاضبًا بشده. يفر شبل من أمامهم وتطارده الضفادع جميعًا. لماذا تفعل ذلك؟ لماذا أخذوه؟ وإلى أين؟ تعثر. وقعت طاقيته. تركها لهم. التفوا حولها ثم وقعت منهم فتشاجروا عليها. وصل شبل إلى الكشك. لهث. استلقى على الفراش. وضع المخدة على رأسه. حاول الهرب بالنوم، وبأذكار النقشبندي.

صحا في الصباح بنصف عين على صوت ابنته فاطمة وقد أحضرت الإفطار. كانت على غير عادتها حزينة، تعجن الهم وتخبزه كأمها. عندما

دخلت إلى الغرفة رأت كل شيء على حطة يدها، ما عدا ماء الزير وجلده المخضر. سألت أباها عن الأمر فانتفض، خرج حافيًا معمصًا إلى القضبان. يتفقد كل شيء: النافذة نظيفة، القضبان نظيفة، والحياة تدب في البلدة. يسمع صوت فاطمة من ورائه "لماذا لا تعود إلى البيت يا أبي؟ عشرون عامًا بأكملها وأنت تنتظر القطار، تلوح للغرباء. ماذا تنتظر؟". عشرون عامًا قضاها بين القضبان والنيل، ينتهي من الوردية فلا تأخذه قدماه للبيت. يذهب إلى النيل، يلقي الحصى الصغيرة ويراقبها تقفز حتى تغرق. كاد أن ينسى طريق العودة، نقطة البدء ماذا كانت؟ لماذا جاء هنا؟ لماذا تركوا بلدتهم القديمة؟ تابع السير غائمًا وفاطمة تقول "تحكي لنا أمنا عن الخضر، تقول كان نبيًّا، كان يشبهك. لا بالحي ولا بالميت، يزور الغيط والحقول، يتحسس البيوت الطينية. في سفر دائم بين أزمان الله، مشتت في البلاد، وقدماه متورمتان من طول السير. لا نخبرها بالحقيقة. نتركها تخرج صوره لنا، في الابتدائية، والإعدادية، قبل أن يقفز في القطار". لن يستمع إلى وسوستها. يعنفها ويأمرها بالعودة إلى البيت، والقطار يفرم كل شيء. يعود سريعًا إلى الكشك. يقرر الرجوع إلى الدخان. يخرج الجوزة القديمة من أسفل الكراكيب. يغسلها جيدًا وبعدها يتجول بين الحقول حتى أشجار البوص ويقطع الكثير منها، يهذبها بالسكين. يذهب ليشتري المعسل القص ويعود مرة أخرى إلى الكشك، بعد أن مر القطار – دون وجوده- بغير سوء.

وجد بانتظاره ثلاثة مفتشين، يجلسون على الدكة ويرتشفون الشاي.

لم يتركوا له مساحة للتحدث، وتبرير غيابه عن المزلقان في ورديته الثانية. أخبروه أنه تم تسريحه لسوء السير والسلوك. قالوا "يا شبل. نعرف الأشياء التي تدور في رأسك". حاول الدفاع عن نفسه، أخبرهم عن سنين مرت دون حادثة. أقسم بحياة الخضر فكذبوه. أخبروه أنهم يعرفون ما دار في الليل، وأخرجوا أشلاء الوليد. عين مفقوعة وذراع مبتورة وحبل سرة مربوط. نظر إليهم مبهوتًا. أخبروه عن الضفادع التي تنتظره. سألهم "أية ضفادع؟"، هاج فيهم. رمى الجوزة في وجوههم. تمزق جلدهم المزيف. بدوا على حقيقتهم تمامًا. مفتشون مزيفون. ضفادع لا أكثر. دخل في معركة معهم على القضبان، ورأى القطار آتيًا من بعيد. كان المسافرون على هيئة ضفادع أيضًا. توقفت المشاجرة. لوح لهم شبل مع المشرفين. هدؤوا لحظة قبل أن يتابعوا القتال. وقع على الأرض. مزقوا جلده بأظافرهم. أطلق صوت نقيق غاضب. صار أخضر مثلهم. قفز على أربع هاربًا حتى وصل إلى النيل. هناك كانت الأغنيات تنتظره.

البُرْص

هناك، حيث يسكن سلطان، مفترق طرق. وساقية مهجورة يعيش في بطنها، مع الجرذان والأفاعي، وجنيّة تدلُّك ظَهرَه كل مساء. قبل عشرين عاما سكن الساقية عفريت من الجن، سلسلها بماء مَهِين، تسرَّب إلى الأراضي الزراعية، فدعى الجراد إليها. ولم تفلح محاولات أهل القرى في صدِّهم. كانوا يشعلون النار في البراميل والأطباق البلاستيكية الكبيرة، ويهببون السماء بالدخان والروائح العفنة، يشعلون الشابة والفاسوخ، ويثرون الشيح في الشوارع وعلى الجدران، ولم يقترب أحد من الساقية المهجورة من بعدها. لكن الجراد مأمور؛ أكلها، وحولها لعانس وهبت نفسها للعفاريت. الجنيّ الأول أنجب امرأة، عاشت في الساقية. يقول أهل البلدة إن سلطان يضاجعها كل ليلة، وتهبه من سحرها فيغفل الناس عن وجهه المطبق القبيح، وعينيه الجاحظتين. الشوارع التي ذوبها لم تنظر لوجهه، لم تخبئه بين أشجارها وعششها، ولم تناوله النساء شربة ماء. كل نهار، يتسلق سَلَبَةً طويلة، يزيل

العماص من عيني الشـمس، يركب دراجته، ويحمل أمامه مِسَـنًّا صغيرًا، يهيم في البلاد، يسنُّ السكينَ ويسِنُّ المقصَّ.

وهناك في بيت نيّء مظلم، تمسك الجدة سكينًا، بينما تقف صغيرتها الخائبة في الركن، تخاف أن تذبح بطة سوداء وضعت الفول المبلول في حلقها على مدار شهر. الجدة تلوِّح بالسكين في وجه الفتاة، تحذرها: "اليوم هو موسم البط، ولن أدعك تأكلين نسيرة منها إلا إذا أمسكتِ رقبتَها، وستبقين مسمومة، ولن يقترب أحد من باب البيت لخطبتك". وارتفع نداء سلطان المبحوح فوضعت الأم السكين في يد ابنتها، وأمرتها أن تخرج من البيت، وتلاحق هذا الولد، ولا تعود إلى البيت والسكين ثلمة. جلست الأم مع حماتها، والبطة مقيدة من رجليها، في حوش صغير، تنتظران عودة الفتاة.

كانت خائفة، تسمع حكايات كثيرة عن هذا الرجل، يقولون إن الجنية تحملـه على جناحيها، وتطوف به على القرى والبلدان. يسرق الأطفال في شوال على ظهره، لتأكلهم في الساقية المهجورة. يقولون إنها حامل بولد، رآها أحدهم - قبل أن يموت على يدها- تجلس ببطنها الكبير، تلعق سكاكين سلطان، ولم يعرفوا من أين وصلهم الخبر. يـا للقرف، قالتها الفتـاة، وهي تنظر إليه، يؤذن في الناس فتخرج النسـاء من بيوتها، ويترك الجزارون المسنون دكاكينهم، ويلهثون وراء مِسَنٍّ هذا الولد. التفَّ حشد الناس حوله، وكان العدد يزداد مع مرور الوقت، وهي واقفة في مكانها، تخاف أن تقترب. ترى سلطان يمسك سكينًا، ويقربه من وجهه، يوشوشه

بكلمات غريبة، كأنها تعويذة، ثم يقبّله ويضعه على المسن. يدير العجلة، فيبدأ القرص في اللف، وتبدأ شرارة صغيرة تهرب من تحت يديه، كأن السكين يئن. يضغط على نصله، فيخرجه عريضًا، حادًا، يسرق رقاب الدواب والطيور، رحيمًا، لا يؤذي إنسيا. في هذه اللحظة، شعر سلطان بنفخة ساخنة في أذنه، توجهه إلى حائط بالقرب منه، ورأى برصًا يركب طائرة مرسومة على الحائط، ومتجهة إلى بيت الله الحرام. حدّق سلطان في الحائط، ورفع السكين من على القرص، راقب البرص وهو يلهو، من طائرة لسفينة، يمشي على حروف الآيات القرآنية المكتوبة على الحائط، يقفز على الكعبة، وعلى رؤوس الحُجّاج، ثم إلى مقام إبراهيمْ. هنا، يعدو سلطان وراءه، يحاوطه بالسكاكين، ويترك الحشد. تتبعه الفتاة المذعورة بسكينها، تختبئ بالقرب منه، فتراه يقترب من البرص، ومن السكين المغروس في ذيله، ثم يمسكه من رأسه ومن ذيله، يوشوشه، تقترب منه الفتاة، وتسمعه "أخيرًا وقعت يا جبان!".

لم يتوقع أحد ما فعله سلطان، ولم يفترق الحشد عندما رآه لاهثًا، فرحًا، يضع البرص في قنينة زجاجية، أخرجها من كيس مصرور، ويأخذ الدراجة ويترك الحشد والسكاكين، ويعود إلى الساقية المهجورة. الفتاة بكت جوار الجدار، كانت ترتعد تمامًا وتفكر ماذا ستفعل جدتها بها، ومن أين سيأتي العرسان لها. ربما تحرمها من الطعام أو المصروف، أو تمنعها عن لعب الغلاء بالخارج، وربما تلقي بها في نار الفرن الطيني، حيث تجلس دومًا،

وتبصر نساء الجن. قررت أن تعدو وراء سلطان، رغم خوفها من عضته ومن الجنية الجائعة. وفي الطريق، حمل سلطان البرص حول رقبته. كان يحرص أن يكون قريبًا منه، يريد أن يعرف، أين اختبأ كل تلك السنوات. هل هاجر إلى بلاد بعيدة، واختبأ في لحاء الأشجار. لكن السؤال الذي حيره لم يكن بسيطًا، من أين أتى بهذه الشجاعة، ولماذا فعل ذلك؟ لم يرد البرص على سلطان رغم تكراره للأسئلة، وفي النهاية وعده بالأمان، ولم يكن صادقًا.

توقَّف ليقضيَ حاجتَه أسفل شجرة، ورأى ظل الفتاة يطارده، اقترب منها، فأشهرت السكين في وجهه، تشعر بالرعب، ويشعر بالتوجس. شم سكينها وعرف أنها باردة. قالت إن جدتها ستعاقبها. خمس دقائق يسن السكين ويكلم البرص، والفتاة يزرق جفنها من الخوف.

"ألم تعرفيه؟"

قالت: مجرد برص.

رد عليها غاضبًا "ليس مجرد برص، بل برص إبراهيم، ظل خالدًا طوال تلك السنين، ظل هاربًا، ووقع في يدي!"

خطفت الفتاة سكينها وركضت نحو البيت. مستها الحمى ثلاث ليال، ظلت تهلوس: البرص الذي نفخ النار على سيدنا إبراهيم معه في الساقية المهجورة، اقتلوه، أنا خائفة يا أمي. الجدة تسمع كلام الفتاة، وتقرر

أن تخرج بنفسـها لهذا الـبرص، وتعرف ماذا فعـل بحفيدتها. هناك تحت الشجرة، تسمع صوته المبحوح، تخرج بجلباب أسود، ورأس معصوب، توقف سـلطان، وتسأله عما فعل بحفيدتها. يرد عليها قائلًا "الفتاة رأت، ولم تكذب قلبها!". ثم أخرج القنينـةَ من الكيس المصرور حول رقبته، وأراه لجدتها، فاحمر وجهها غضبًا، ولطشـت القنينة وأوقعتها على الأرض. صرخ فتجمع الناس حولها. قال لهم إنه البرص الملعون، أمسك به بعد سنوات طويلة اختبأ فيها من البشـر. بينما حمل أحفاده خطيئته، فالتصقوا بالأحذية والجدران، وهرست ذيولهم وتناثرت دماؤهم بين البشر. صاح فيه الناس، "يا مجنون!". لم يصدقه أحد، إلا رجل بلحية سوداء، سرق القنينة الزجاجية، وحـاول أن يكسـرها، ليقتل البرص. لكن سـلطان قاتل، قفز على الرجل ولكمه في جسـده، عضّه من أذنه، فتسـربت الدماء على خده، بينما نهضت الفتاة، وشاهدت ما حدث من سطح بيتها.

ظل سـلطان يحوم حول القرى، يسن السكاكين، ويعرِّف الناس على الـبرص. وظل الناس ينعتونه بالجنون. لم يسـلم مـن الرجل ذي اللحية السوداء؛ ظل يطارده من بلدة إلى أخرى، ومن حفرة إلى دحديرة، يحاول قتـل البرص. وفي يوم، لم يـر الرجل القنينة الزجاجيـة معلقة حول رقبة سـلطان، خمن أنها في السـاقية المهجورة. فكَّر كثيرا، وقرر أن يتسـلل إليها وقت الظهيرة، حيث يختبئ الناس من لسـعة الشمـس. حزَّم نفسه بجلبابه، تمسك بالسَّلَبَة ونزل إلى بطنها، وهناك وجد الجنـية بانتظاره، وعاد إلى الناس

درويشا، يسكن المقامات والمقابر، ويدعو الناس للإيمان.

انتشرت الأقاويل في البلاد، وتزايدت الوفود إلى الساقية المهجورة، ليتشاوروا في أمر البرص. كانت ليلة جمعة، هلالها بازخ، ينير الأرض مع مشاعل الحشد الكبير. خرج سلطان مع البرص أخيرًا، انتظر الناس خروج الجنية، فلم تخرج، وتزينت في مرآتها بانتظار سيدها. ارتفعت صرخات الناس. طالبوا بقتل البرص والثأر لسيدنا إبراهيم، قال أحد الرجال: "إذا تركناه يمرح في الأرض سيكون إبليسَ جديد"، وقال آخر: "لو قتلناه نأخذ حسناتٍ كافيةً فندخل الجنة"، وقال شاب صغير: "نعصره ونعالج الأكمَهَ والأبرص". صاح سلطان فيهم: "ولماذا لا نحاكمه، ربما يمتلك حجة، أريد أن أعرف لماذا فعل ذلك". انتشر الهرج بينهم، وانهالت الشباشب على رأسه من كل اتجاه. حتى جاء الدرويش يخترق الصفوف، ومعه الفتاة الصغيرة وجدتها، فهدأ الحشد وترقَّب. وخرج النور من فم الفتاة: "أشعل البشعة.. قضي الأمر".

أشعل الناس النار وجلسوا في الصفوف. بينما دفن الدرويش طاسة البشعة في النار، وكتب في ورقة صغيرة الجريمة التي ارتكبها هذا البرص، ثم دفنها كالحصاة بالقرب من الموقد. كان سلطان شاردًا، ينظر في عيني البرص فيرى ألسنة النار تعلو، مع نفخة الكير. كان أبوه حدادًا، لكن باب الحداد مخلع، من أجل ذلك أخذه إلى المعلم حافظ، ورآه سلطان يدق على الحديد، يلينه ويشكله مثلما يشاء كقطعة طين. تعلَّم الحدادة على أصولها،

كيف يصنع البواباتِ والنوافذَ بأشكال جديدة، كان بارعًا، وكان يحب الرسم وخرط الحديد. لم ينس عندما رأى "سكينة"، ابنة المعلم، للمرة الأولى، كبّت الشاي في حجره وركضت إلى الخارج. ولم ينسَ حين طلبت من أبيها يدا جديدة للهون، فرجع إلى عشته القديمة، وجلس أمام المنفاخ والمطرقة، أشعل النار من أجل عينيها، وظل ينفخ فيها. صنع عروسًا تشبهها وأهداها إليها في الصباح، رأى أبوها اليد فاشتعل غيظًا، واعتقد أنه يشاغلها. أمسك يد الهون ودغدغ بها رأسه وطرده من البلدة. وظل يردد بصوت ساخط "اذهب أيها البرص". سلّط عليه طوب الأرض، الكلابَ والشمامين، حتى سكن الساقية، وقابل هذا المخلوق الصغيرَ، المسكين، الذي ينظر إلى الطاسة الحمراء، يُخرج لسانه مستسلمًا، ويلعقها ثلاث مرات، على مرأى من الحشد الصامت. لم يتألم البرص، لم يبكِ، أخرج لسانه الوردي للحشد مرة ثانية، وقرَّبه من الدرويش الذي هلَّل ورقص، وتركه يذهب لحال سبيله. لكنه نظر إلى سلطان نظرة أخيرة، واتجه إلى ألسنة النار وقفز فيها.

النَّداهة

الشـتاء هنا مائل للزرقة، يأكل العظم والبيوت.. ميزان ماء يحني ظهر الناس، رغم الشاي الأحمر وشكائر الفحم. حداءة تقضم الأصابع وغراب يضرب الغلة بالطوب. الريس حسن معجون من صخر، جسده يسد عين الشمس، يعادي الريح، يوشوش الندى على أعواد البوص والأشجار. يشق أرض الموز وجنائن البرتقال، بقامة تعلو أبراج الحمام، يتجاوزها... يسير على الأسفلت، ويترك على أثره جمرًا. وراءه ولده ناجي. وهناك التملية(*) يجلسون أسفل قضبان القطار، يشقون ريقهم بالفول والبصل، والهمسات: أسرار الطوب، كرامات الخراسانة، وعرق يذيب الحديد.

مع ضوء الشـمس، تدخل صبية على رأسـها بلاص من صخر، يليها أرواح تنبت من أرصفة، تعفرها بتراب مبتل. مُسن يحاول جذب الشبان

(*) الفواعلية، رجال يغدون خماصًا ويعودون خماصًا.

لملابس قديمة، يعرضها على حبل مشدود بين عمودي إنارة.. قفص خشبي معلق على صدر فتاة تبيع السمسمية، ورجل يجلس أسفل الأقدام ويلمع المداسات، أمين شرطة يحط على السائقين في موقف السيارات، "عرق سوس، شفا وخمير، بسبعة ونص يا ولاد الكلب".

مطرقة طويلة.. أجنة.. عتلة وشاكوش.. تقف أمام الريس حسن وأمام التملية، محزمة جيدًا ورأسها للسماء.. التملية رجال أقوياء، يجلسون حول صينية الميدان، يأكلون ويشربون وينحلون وبر ريس الأنفار.. والريس حسن يجلس منزويًا، يلتقط همسات الحصى وأنَّات الطوب ودبيب عربة ريس الأنفار. يراها التملية فيتركون رؤوس البصل، يقفز الريس حسن إلى العربة فتهتز الأرض، ومن بعده ناجي. تطلق العربة نفخة عالية، يلتقط الرجال أدواتهم ويهرعون كالجراد؛ يقفزون من كل اتجاه، يبحثون عن موضع آمن قبل أن يرتفع الصندوق الخلفي عاليًا. من أراد أكل العيش لن يقع، قانون البقاء موضوع على يد ريس الأنفار. تبدأ العربة في التحرك وترفع صندوقها عاليًا، فتغربل التملية على الأرض، هناك من ينجو؛ الذين يضعون مطارقهم وسط الحديد، والذين يحزمون أنفسهم في جانب العربة، أولئك هم المصطفون من الريس حسن.. الواقف أعلى العربة ممسكًا بناصيتها وولده، ويده الأخرى ممدودة إليهم.

ضربة الريس حسن يعرفها طوب الأرض، يقف على سور مبني على نصف طوبة في الطابق العاشر.. يمسك المطرقة بقفاز من قماش ورأسه

معصوبة بشال حجازي. يتنقل على السور بقدمين مصبوبتين، وثعبان أزرق مدقوق على الذراع.. وناجي بالجوار مع التملية يأكل الجدران والخرسانة، همست طوبة للريس حسن عن امرأة فاتنة قفزت مع وفاة العندليب، وطوبة حكت عن رجل خاض ثلاثة حروب، فقد فيها قدميه، كان يسمع آهات زوجته في الغرفة المجاورة مع رجل آخر. الطوب يعرف الحكايات، يتوسل الرحمة من الريس حسن، وهو أرحم الناس؛ يطوحها بضربة واحدة.. حد الله بينه وبين طوبة تحمل مسكنًا للنمل، يطرطر عليها ريس الأنفار بالأسفل.. برائحة شعره المختلطة بالزيت الحار وبقايا البراز، فتجذب الهاموش والحشرات إليها..

النملة كبيرة بمؤخرة سوداء، تتشبث بأرجل رفيعة، ينفرج منخار ريس الأنفار مع شلاله الأصفر، يسقطها من طوبة إلى أخرى، تقع فتطفو على بقايا الردم، تتعرج مع الماء بالقرب من قدميه، فيدهسها بحذائه الباتا.

يقفز الريس حسن إلى السلم ويترك ناجي على سقالة خشبية؛ كان محصورًا.. سار بين الحكايات حتى وجد مصنعًا للسيراميك، دخل بقدمه اليسرى إلى دورة المياه.. القاعدة إفرنجية.. أسفلها تاج منقوش.. أسقط نصف سرواله، أشعل سيجارة وصعد على وجهها المغلق.. قرفص على صندوق الطرد.. حيره أمر هذا الكنيف الغريب، لم يعرف ماذا يفعل.. قرر أن يصوب على بلاعة صغيرة في الركن، ثلاثة قطرات صفراء وبعدها اصطدمت رأسه ببلاط الأرضية، واختلط الدم بالبول، والحابل بالنابل،

ولم يعرف التملية سر تأخره إلا مع رسول جاء من المصنع.. الرأس مشقوق من الجانب، والدم حمّر الشال، واليدان متدليان على ألواح الخشب.. لا حول ولا قوة.. هوة عميقة.. وعتمة تحاصره.. وولده يلطم في صمت.

على سهم حقل فوق شكارة علف جلست زبيدة وكشفت عن ساقيها. تمسك كورنيش فستانها وتمسح آثار الكحل المالح.. شعيرات ذهبية وجدتها الجدة على صينية الشاي، التقطتها، وأخرجت ورقة الكحل الحامي من جيبها. أمسكت الأم صغيرتها وملأت جفنيها بالكحل، تخبطت الصغيرة في الجدران. لم تصرخ، لم تكن المرة الأولى التي تؤمر فيها الأم بأذية ابنتها، تقول الجدة "الكحل يوسع شرطة العين"، وزبيدة عيناها ضيقتان، تفتحهما نصف فتحة لترى الطريق، إلى حوض الطرمبة، لتغسل عينيها بالماء والبَرَد، وتسير نحو السهم المطل على النهر. وناجي على حمل من البرسيم مجدول كضفائرها، يقفز من على الغبيط، يضرب الحمار على مؤخرته ضربتين، ويبتعد.

شده عيناها الضيقتان.. كمجذوب، والنهر ضيق. يحمل زبيدة على الجرف، ويطير الهواء فستانها. تحفر الأرض من أجل طعم.. يقترب منها فتحكم قبضتها على الطين.. لا تريد أن يراها أحد.. جلس بجانبها وتتبع دمعة سوداء، ابتلعتها الأرض.. لا يذكر ماذا قال: "أنتِ عروسة المولد"، ثم نفخ فمه بالهواء، وابتلعه، وبعدها أخرج برتقالة من أذنها. ضحكت

وخطفتها.. ركضت بين غيطان الغلة، قفزت فوق الأنابايات، وعلى سلخة يجدها بطات الكرنب أمسكها.. كان طفلًا هزيلًا، أرفع من عود ذرة وأكثر قوة من فأس.. اقتلعها من الأرض.. حملها على ظهره وطار بها بعيدًا.. عند مركب صغير أخذها، خلع ملابسه وقفز في النهر، ارتعشت زبيدة من برودة الماء، لكنها قفزت وغابت عن الأعين.. سنوات يبحث عن رضا أبيها التتن.. يجلس الآن بالقرب من عربة الفول، ينزوي في لباس أبيه، بشحمه ولحمه، يرى العربة تتقدم إليهم، فيلتقط أدواته ويجري لاهثًا بين الجموع.. كانت على بعد خطوة؛ بعيدة ومكتظة بالأنفار، ركض تجاه الصندوق، تفادى السيارات الغاضبة، والباعة الذين يرفعون آذانهم. ارتفع صندوق العربة والتملية تشبثوا بها، يغضون الطرف عن ناجي.. رمى العدة داخل العربة.. أعماه عادم السيارة وملأ حلقه بالبلغم، سعل، قفز فأمسك مؤخرة العربة، تزحلقت يداه، رفع جسده وألقاه داخل الصندوق.. تمسك بجانبه، ارتفع الصندوق للأعلى مرة أخرى.. لهث، صدره مليء بالدخان، أحس بدوار لكنه هبش أرضية العربة بأظافره.. تماسك.. رفصه أحد الساقطين، كاد أن يقع.

النجاة: أن يهجر الحوائط والسقالات ويقف على السور مثلما وقف أبوه، أمام أعين التملية وعضلاتهم البارزة، يضرب الجدران بقوة. هو رجل من ظهر رجل، وليس عيل بشخة. الشال أبيض يسند رأسه، والمطرقة الطويلة تطير فتات الطوب على الريس، ريس الأنفار. يصعد بصلعة حمراء ويسأل ناجي عن أبيه، فيرد أحد الأنفار "قصدك الخواجة حسن؟" وبكهن

يرد الريس "عيب يا ولد!"، يعلق أحدهم "ما كان يعملها تحت شجرة يا ريس"، تنهال الضحكات على رأس ناجي، يتدخل آخر "ويمسح طيزه بورقة منها"، ويتابع ثالث مع الضحكات "أو يفركها بحبة تراب، أو حبة بركة يا ريس!".

جرس هاتف ينقذ ناجي.. لوهلة.. يتعفرت الريس وتركبه الشياطين، ينط على سور ناجي نطة واحدة، يوكزه بأزميله، ويقول "أبوك مطلوق على خلق ربنا، اربطوه!". الريس حسن هرب من البيت، جلس في الشارع بالفانلة واللباس، تعارك مع الحجارة وطوب الأرض.. اعترض طريق الناس ولسعهم على قفاهم.. كان يأكل من القمامة عندما اقتربت زبيدة.. أعطته رغيفًا وكوب شاي.. سلم عليها ببشاشة للمرة الأولى، ثم قبل بياض يدها وشدها، فانقلبت على الأرض، وتعرى من ملابسه. كاد يقفز عليها لولا أن تدخل الناس، ستروه وأعادوه للبيت، ركضت زبيدة على طول الطريق.. ظل ناجي صامتًا.. لم يقدر على الرد.. الريس غاضب.. "رد ياض"..

الريس يتوعده:

"اقطعوا عضوه"..

الريس يقسم بالطلاق ثلاثة "اخصوه".. شارت عليه أم ناجي من قبل أن يربطوه.. شدد عليها أن تقفل الباب بالمفتاح.. هرب! كيف؟!

الأسئلة تطحن رأسه والشمس تأكلها، الريس يتوعد والأنفار يضحكون علانية.

الصور تومض: قبلته لزبيدة تحت الماء، علقة ساخنة من أبيه، مركب وعينان مكحلتان، دراجة ركبها بمساعدة والده، غيطان غلة، وجذع شجرة فلقه ببلطة أبيه. ماذا سيفعل ريس الأنفار لزبيدة، سيزوجها لرجل آخر بعد الدبلوم، رجل نتن، لماذا صعد أبوه على صندوق الطرد؟ ستضيع زبيدة من أجل شخة، شخة يا ناس، شخة يا خلق.. "اربطوه"، "ما ترد يا ابن الكلب"، قالها ريس الأنفار.. الريس حسن كلب! صاح أحد الأنفار معترضًا.. فارت الدماء في رأس ناجي، لم يرد، قد يخسر زبيدة، أكل العيش مر والعشق مر.. سكت.. كررها النتن بأزميل حاد، وبضربة واحدة، كما الريس حسن، طوح ناجي السور من تحتها، وطار الرذاذ مع الهواء والأحلام.

القِطُّ

تأتي الصبايا إلى حفرة عميقة فيها ماء كالزفت، يحملن الجراكن فوق حوايات دائرية من القماش، تتراقص رقبة كل صبية مع جركنها، دون أن تسنده أو تمسه بيديها، رغم قطرات المياه الوسخة التي تتسرب إلى أنفها وفمها. ثلاثة أشواط وربما سبعة، على حسب وسخ المياه في الدار، وقد تأتي عربة المجاري لتصب ماءها الأخضر هنا، ويعلو طنين الذباب والحشرات، وتكثر فيها الأمراض حتى يردمها الحاج عثمان القط ويسكنها ويعمرها، ويصبح اسمها جورة أولاد القط. وفي جورة أولاد القط لا يهم إن كان الميزان عادلًا، الشيء المهم أن ترى كفة تطب، ويطب معها قلب صاحبتها. طبة ميزان تُجرّي لعابك الناشف وتشعرك بالشبع. ستجول هنا وهناك، تنصت جيدًا لتسمعها وتدور عيناك بين أروانات وطشوت، تجلس أمامها زوجات القطط، فضية مملوءة باللحم والحلويات، نساء يجلسن بجلاليب

فاقعة، لها صدور مستطيلة منقوشة، تلتصق بها روائح نتنة. لو دققت النظر سترى أرواحًا عالقة، سبعة حيوانات وربما تسعة، تتناثر بين الأروانات. بين الأرواح امرأة تسند رأسها وتشمر ذراعيها، تكشف عن شعيرات ناعمة فوق جلدها الغامق وهي تزن لحم الرأس، وفي الركن امرأة أخرى تبيع لحم القلب، وأمام عتبة خضراء تجلس امرأة ثالثة تنتف قربة ماعز وتجردها جيدًا. واحترس من بائعة المبار، فهي لا تضحك أبدًا. تستطيع أن تعرفها بشعيرات أنفها. هي لا تموء مثلهن، تكتسي بالسواد، ولا تكتحل منذ وفاة زوجها الأول، الابن البكري لأولاد القط. حول رقبتها كيس يمتد إلى صدرها، اسمها أم خالد. إذا أردت مناكفتها، فامدح خالدًا. قل عوده فارع كعود أبيه، وشرطة عينيها الخالق الناطق، وراقبها – بعد ذلك – وهي تمرش أمعاء الخاروف كبقعة موز التصقت بقميص ابنها. الآن تقلبها وتغسلها، ولن يطول الوقت حتى تتخلص من نتانتها، تفركها بالملح الخشن، وتغسلها بماء غزير من خرطوم جوار عتبتها. تسمع طبة ميزانها تدب بقوة، وبعد أن تلتقط الكيس من يدها تسابقك أنفاسك، حتى تصل بيتك مرفوع الرأس بغنيمتك الكبرى، وقد تقابل في الطريق خالدًا، يمسك المصحف ولا يراك، ولا يهتم بوجودك من الأصل.

اللوح لا بد أن يكون محفوظًا، يمشي في الطريق على سلخة ترابية تحدها أنايتين، يجري الماء فيها مع أفراخ الضفادع، يقرأ الآيات بصوت مسموع "وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ

وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ". يردد دون النظر إلى المصحف، ومع كل مفردة مميزة يثني إصبعًا؛ النفس، العين، الأنف، الأذن، السن، والقصاص. يمر على بيوت سيجت الزرع وأناس يضربون الأرض فيصنعون قوالبَ منها، يرصونها فوق بعضها ويحوطون عشة من أعواد الحطب المجدول. يصل إلى بيت عمر ابن الشيخ، يختلس النظر فيرى الأخت تركب على ظهر أخيها. يركل الأرض مثل خروف، فتعلو ضحكاتها. يشم خالد رائحتها الجميلة، لِيَّة خروف عفنة تسبح على النار تعكرها، لا يعرف مصدرها. تصرخ الطفلة بلذة "سنذبح الشيخ سيد في العيد"، فيتذكر الشيخ، واللوح، والنفس، والعين، والسن والفلكة، فيتابع الطريق. يصل إلى سور السلخانة، يشم رائحتها النتنة. على جدرانها أيادٍ من دم، عظام لحمها متآكل، أرواح تحب الحياة؛ تخرج في المساء فتسود ليل السائرين جوارها، تؤنسهم، تركب على حميرهم، عجلاتهم، تداعب نسوانهم، وتلقي النكات عليهم فتضحكهم أو تميتهم من شدة الضحك. تعود في الفجر إلى الجدران أو تعلق داخل السلخانة. يراها خالد مغروسة على خطاف ثنائي مع الخرفان والبهائم، يسمع همساتها "كن رحيمًا بنا وتعلم الذبح!". يتأمل أجسادها الغريبة ويلمح على خطاف جسد عمر معلقًا، دم أزرق يسيل من رقبته. خط رفيع يشق الطريق ممتزجًا بدم الذبح. تتلاشى الخيالات على سكين موضوع على رقبة خالد، يهمس العم "الآن، تسرق السكين روحك"، يلتف فيراه يضحك منتشيًا بروائح الدم. جزار لم تلده ولادة، رحيم على الذبائح،

لا ترى يده من فرط خفتها، لكنها لا تُفْزِع خالدًا. هنا داخل السلخانة لا يعرف غير الدماء والرؤوس المبتورة، يراها دون فزع، أما خارج جدرانها فيتذكر الفلكة والذبائح المعلقة على خطافها.

ركض إلى الطرمبة ووضع المصحف على حوضها، أمسك يدها كما يمسك الفأس وضغط؛ فأخرجت الماء من فمها. قبل المصحف ثلاثًا، وردد اللوح، النفس، العين، الأنف، والفلكة.. الفلكة. وظل يرددها حتى وصل إلى الكُتّاب. نزل درجتين، سمع أصوات القراء مطمئنة ومخيفة، أخذ نفسًا وعدل من هيئته. ألقى نظرة على أظافره المقروضة، دخل وحده، وترك الخوف بالخارج. جلس على مصطبة بعيدة عن الجدار الضعيف، راجع اللوح مرة أخرى، البداية مربكة، ستة أشياء، أولها النفس والقصاص آخرها، والفلكة تقع في مكان ما. كان كالمسبح على أنامله، يغمض عينيه فيرى الذبائح تجلس على المصاطب وتصطف أمام الشيخ، أحدهم يمسك بالمصحف ويصح اللوح للآخر، وآخرون يسندون الجدار الضعيف بمخالبهم. يأخذ دوره في الطابور. الشيخ يجلس على كرسي في المنتصف، يقترب خالد من لبنات الجدار والفلكة. يسمع عمر يقول "تعال". يقف أمامه مرتعشًا والمصحف وراء ظهره، يبدأ في تلاوة اللوح ويرى صورًا، تومض هنا وهناك، أرواح تقفز على الجدران، تهزها بقوة وهي ترتل الآيات. أعواد السقف تكاد أن تقع، الجدار الضعيف يتهاوى، عنزة صغيرة تصح لوحها تمتد إليها سكين، تحررها فتزعق مع الأرواح. وسوسة تهمس بالآيات، النفس،

العين، القصاص، الفلكة. يستمع إليها، يهمس معها، ويسمع مأمأة عمر، والقلم الأحمر يقع المصحف. ولم ينج من القلم، من اللوح المحفوظ، من النسيان والفلكة. قدماه مرفوعتان أمام الشيخ، وصوت يأتي من مكان ما "أمك جاءت إلى أبي بالأمس"، الصوت لعمر، فماذا يقصد؟ وماذا يريد؟ "أرادت حجابًا يقربك من عمك"، صوت العصا يتداخل مع الهمسات "هل أنت غاضب من عمك لأنه ينام على فراش أبيك؟"، بركان في رأس خالد لا يخمد. لم يصرخ، عار على الرجل أن يصرخ، أن يبكي، الشيخ يضرب بعصاه فتنفلق الصور؛ شبح أبيه يقترب، وعمر معلق في سقف السلخانة، والعم يسن السكين في الظلام وينتظر اللحظة المناسبة، والعم جزار لم تلده ولادة، رحيم على الذبائح، لا ترى يده من فرط خفتها، ولم يرها أبوه عندما سقط مذبوحًا. حاول خالد المقاومة، رفس الفلكة صارخًا وتمرغ في الأرض مثل حمار ملبوس.

بقدمين متورمتين مشى عائدًا مع الطريق، إلى محل الجزارة. يجرهما بمشقة، يستقبله عمه بقلم على قفاه وسؤال على أمه. يعلمه تقطيع اللحم، كيف يمسك الساطور بثقة، ويضرب اللحم بحدة، واللحم من عنده مخلوط بالعسل، والشوربة ترم عظام المتعبين. كريم وكفّته تطب بمقدار وهيئة الزبون، وزبائنه ليسوا ممن يشتهون اللحم فقط، فهناك الهامسون؛ الباحثون عن العظم، وهم المفضلون لدى خالد. يعرفهم كما يعرفون أبناءهم، عندما يقبل أحدهم متثاقلًا، يساعده بانتقاء ماسورة جيدة، يفصلها عن روحها

ويلفها في كيس أسود، ويعطيها للرجل. بعد انتهاء العمل، يمر خالد على بيت الرجل، ويشم رائحتها، يميزها، وأحيانا يراها تذوب مع الملح والبصل، في نار عميقة، ويرى مخالبها تخربش جدار الإناء، تحاول الهروب، وفي كل مرة تشدها المخاطيف فتنزلق إلى القاع، تثبتها، تكتفها، وتكتم أنفاسها ثم تهدأ ويهدأ خالد.

بعد صلاة المغرب عاد إلى البيت، استقبلته أمه بقطعة مخ غارقة في الملح والكمون، ملفوفة في رغيف من القمح الأبيض. وجد عمه يمسك بريموت التلفزيون، يجلس في المندرة مرتديًا الصديري والكلسون. شعر بالشبع، وفي الغرفة أتاه زعيق سريرهما النحاسيّ. اقترب من بابهما، حاول التنصت، لم يسمع غير آهات، وشم رائحة لبن ممتزج بالدماء. قفز الدرج مبتعدًا إلى سطح البيت، جلس قرب الفراخ والبط، بجانب طبق الدش الكبير. أحس بسواد يأكل روحه، تذكر ابنة الشيخ، رائحتها الغريبة الحلوة وغمازة خدها الأيسر. ذهب ذات يوم إلى بيتهم ليوصل اللحم والممبار، فأخذت الأكياس وهي تسد أنفها. ووقف كالشحاذ، على عتبة بابها، في انتظار الحساب. علت بقبقة البط في العشة فانتفض خالد مختنقًا. في الحلق صوت محشور، صارخ، وصدر فارغ. سمع صوتًا، مناديًا في الشوارع "الله، الله". يعرف هذا الصوت، ربما يكون أبوه، يتموج مع الدراويش وينشد دون أن يتألم. نزل إلى الشوارع، جرى وراء الأشباح والخيالات والأصوات، ولم ير في الحضرة أحدًا.

مع أذان الفجر عاد إلى البيت. التقط المصحف، وبَلَّ ريقه بكوب عصير. حدق في جلباب أبيه المملوء بالقطن، ومشى في طريق السلخانة وسط صياح الديكة وزقزقة العصافير، يردد الآيات بصوت مسموع "وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ". وصل إلى باب الكتاب، نزل الدرجتين، تنفس اللوح كما الهواء المنعش. نظف صدره، لم ينظر إلى فلكة الشيخ وعصاه، ولا الأشباح التي تسند الجدار الضعيف. مشى وسط الحظيرة بثقة، قدماه تعرفان الطريق إلى الشيخ، ومنها إلى ابنه الجالس بالقرب منه، ورآه برأس خروف. "تعال"، قالها مرة أخرى، بهدوء، بسلام. لن يستمع خالد إلى وسوسة القراء، بعد اليوم، لن يسمح لعمر أن يبقع مصحفه مرة أخرى، وبنجاح اكتمل لوح خالد وأخذ لوحًا غيره ليسمعه غدًا.. أخبره عمر أن أمه وضعت الحجاب في حجرته. جلس بجانبه وطمأنه قائلًا "كل شيء سيكون بخير". في هذه اللحظة ظهرت أخت عمر، بشعرها الغجري ورائحتها الجميلة، أشارت إلي أخيها فتركه وذهب إليها. كانا ينظران إليه بازدراء، وفي غفلة من عمر، لم يرَ السكين ينسل، لم يشعر بيده من فرط خفتها، كان مثل جزار لم تلده ولادة، وكان رحيمًا.

الدِّيك

ثلاثة أيام وأهل القريـة يتحدثون، ينخلون الكلمات ويخبزونها، حتى كره الناس مصادفة تلك المرأة في الشـارع؛ فمنـذ حطَّتَ رِجلها في حقل الباذنجان، والمرارة أكلته. بقعة دم كبيرة على جلبابها تكفلت بقطع عيشها وعيش صاحب المحصول. ولما حاولت ابنتها الكبرى أن تعمل بدلًا منها، طردها الناس من الأرض خشية أن يكون النحس طالها، فأمها مدنسة في شرع القرية، ومحرم عليها جمع الباذنجان.

الزوج مـا زال في المدينة، يغيب أربعين يومًا وليلة، ويترك أمه في رقبة نعمة وبناتها، والجدة لا تعمل أبدًا حسـاب الغد، بالأمس جلسـت أمام موقدها، أمسكت مفراكها الخشبي، وفي إناء كبير فركت الخبيزة، وبجانب الموقد التفت نعمة بناتها عندما شممن رائحة الطشة، ولم يتوقفن عن الأكل حتى فرغت مشنة الخبز.

مـع صياح الديك المقدس تخرج نعمة من عشـها، تسـير مع ابنتها إلى القرية، تحذوان الترعة، تمسـحان الحقول المتناثرة على ضفتيها. تستعطف الأم رئيـس الأنفار، لكنه يابس قلبه. لا يسـمح لهما بالعمل. تسـيران في أزقـة القريـة وحواكيرها مع أطفال يحملون أحلامهـم وخيباتهم في لوح خشـبي، يهرولون نحو الكتاب مع البهائم، والبهائـم تعرف طريقها إلى الحقل، تتغوط في الشارع. تنظر الأم لابنتها، فتمضي البنت إلى أحد البيوت وتشحذ طبقًا بلاستيكيًا، بينما تتبع الأم روث البهائم الطازج، تحمله بكفيها.. تدوره، تصنع منه قرصًا ممتزجًا بحبات التراب والقش. لتأتي ابنتها بعدها، تلتقط غلافة متسـخة، تسـد أنفها، وتهاود لحم بطنهـا، وتجمعه في الطبق البلاسـتيكي. لم يمض وقت طويل حتـى امتلأ الطبق، لتحمله عنها أمها وتعودا إلى البيت.

وراء البيت، تعمل الأم في مزج روث البهائم بالقش والتبن، وتنشرهم تحت الشـمس، ستبيعهم في القرية؛ القرص الواحد يساعد على اشتعال الفرن البلـدي أكثر من حزمة حطب، وتقول الجـدة إن الخبز المحمي بالروث، طعمه أفضل من غيره.

في اليوم التالي حملت الأم مشنة مملوءة بأقراص الجلة، لفت على بيوت القرية، ولم يستقبلها سوى بيت وحيد. طلت العجوز من شباكها وقالت "اصعدي يا نعمة"، وكانت بركة الديك المقدس تنير سطح البيت وتغسله من الشـياطين والغربان. صعدت نعمة وابنتها إلى الدور الثاني، ووجدتا

العجـوز تنتظرهما، وأمام الحجرة في الفَسـحة ثلاثة ديوك تقرقر بشـدة. زغـدت نعمة ابنتها التي ترتدي هدمة حمراء، واللون الأحمر يهيج الديوك ويغيظهم. دخلت الابنة غرفة العجوز وأحبّت يدها، جلسـت على أريكة مبطنة بالقطن، نُجدت حديثًا، بينما صعدت نعمة فوق السطح. ولأول مرة ترى الديك المقدس يفرش ريشـه فيمر الهواء من خلاله، وبِعُرفٍ دموي يزين رأسه ومنخاره. لم يقرقر الديك طويلًا عندما رأى نعمة، بل ظل واقفًا على حافة السـور، فوق أقراص الجلة المتراصة على بعضها، وبدأت نعمة في رص أقراصهـا الخضراء في الجانب الآخر من السـور. كانت تنظر إلى الديك المقدس بين الحين والآخر بتبجيل، فهو القادر على طرد الشـياطين، ومواجهة ملاك الموت السـاكن في الجبانة المقابلة لبيت العجوز، وهو بقدرته يخيف الغربان السـوداء، يقرقر لها، فتهرع كأن أطفال القرية قد أصابوها بكلمة أعور، والغربان عوراء، تتخبط في الشجرة العملاقة لما تـسمع تلك الكلمـة، ثم تهرب بعيدًا، وتأخذ الشـؤم معها. يسـمع أبناء القرية قرقرة الديك كل صباح، كأنها تنزل عليهم من السـماء السـابعة، فيخرجون من أعشاشهم وديارهم، ويذهب كل مريد إلى مراده، كل ذلك يحدث بقدرة هذا الديك.

نزلت نعمة إلى الطابق الثاني، طلبت منها العجوز أن تترك ابنتها معها لتناولهـا الطعام والدواء، وافقت نعمة بعـد النظر في وجه ابنتها، أخبرت العجوز إنها ستعود بمشنة أخرى لتكمل رص السور. عادت نعمة لحماتها

وناولتها ملاليم لتطعم البنات، بلت ريقها بعدما شقته بأعواد الخس الخضراء ولقمة عيش ناشفة أحضرتها الجدة من الجيران. وبدأ الشيطان يلعب في رأسها. نظرت إلى بناتها الجائعات، وحماتها التي سرعان ما ذهبت إلى القرية ورجعت بحزمة من الملوخية وحزمة من الجرجير الطازج. لماذا تمكث هنا وتلزق أقراص الجلة وبناتها جائعات؟ تعرف أنهن لا يحببن الملوخية، لكنهن سيحببن طعم الديك الرومي، سيكون كبيرًا بما يكفي لإشباعهن أسبوعًا. ستذهب إلى بيت العجوز، وبمساعدة ابنتها ستقوم بإمساك الديك، وتذبحه فوق السطوح، ستفرش المشنة بطبق بلاستيكي، وسيملأ الديك الطبق، كما سيملأ بطون بناتها.

رصت نعمة بعض الأقراص في المشنة. حملت الطبق البلاستيكي في يدها، وذهبت إلى بيت العجوز. خافت الابنة في بادئ الأمر عندما أخبرتها أمها بما في رأسها، "سنأكل الديك المقدس يا أمي! ستلبسنا اللعنة والشياطين، وربما كان لحمه مسمومًا". طمأنت الأم ابنتها وأخبرتها أن الديك لن يخبر أحدًا بأمرهما؛ إذا ما صنعا من لسانه شوربة لذيذة. وافقتها البنت. صعدت الأم ممسكة بسكين من سكاكين العجوز، وجزت رقبة الديك المقدس، وعادت إلى دارها برفقة ابنتها. في الليل، أضاءت لمبة الجاز المائدة، الجدة تقسم الديك عليهن، ولا تكتفي بقطعة لكل واحدة، لم تقترب إحداهن من طبق الملوخية المركون، أو من الخبز الناشف في مشنة الخبز، البطون امتلأت عن آخرها. وحدها الابنة أحست بالذنب، ليس من أجل الديك

أو العجوز التي عطفت عليها، لكن بسبب الغربان السوداء التي حطت على الشجرة العملاقة.

في الصباح خرجت نعمة وابنتها ليتتبعا روث البهائم، لكنهما لم يصادفا صريخ ابن يومين، لم يخرج أحد من داره، الغربان ملأت الشجرة العملاقة وكستها بالسواد. الديك المقدس اختفى، لم يسمع أحد قرقرته منذ الأمس، لم يعد واقفًا على السور بعرفه الأحمر، وخطواته الواثقة، ولن يجد ملاك الموت من يواجهه هذا الصباح. توقفت الأعمال في القرية، جفت الأزيار من الماء، جاع الأطفال والكبار. استطاع ملاك الموت أن يدخل بيوت القرية، تعالى النحيب والتعديد، والقرية صغيرة، وملاك الموت يتعسس كل ليلة، ويحجب نور الله عنهم، يمشي وسط الطرقات برجل مسلوخة، متفرعنا، يمكن للحيّ أن يسمع دبيبه على عتبة داره، ويدعو الله ألا يتبول أمامها.

نعمة تسكن في الجهة الأخرى من القرية، يفصلها عنهم ترعة جفت أو شربها ملاك الموت. ونخلة بإصبعه الأزرق خوّخها، كل ليلة يقترب من بيتها أكثر، فتحوّط على بناتها في الليل، تصيب الحمى ابنتها التي شهدت جريمتها، فترى غرابًا أسود يقترب، تحذر أمها "فوق رأسك"، فينطفئ المصباح، ويجف الجاز من البيت. يزيد الخوف داخلهما، ويزيد شعور نعمة بالخطيئة، أغواها الشيطان ودنسها ببقعة دم، قطعت عيشها وأيبست الأخضر منها.

في الليلة الثانية من ذبحها للديك، عاد العم عليٌّ، زوج العجوز، بعدما

انتهى من عمله في المدينة. زار أولاده المقيمين هناك، فلم يستقبل حضوره أحد. زرقاء كانت عودته حين مشى بعكازه من محطة القطار البعيدة إلى القرية، ينقر الأرض ويسب أهلها المجانين، يجرجر حقيبة سفره، فتصرخ الأرض وتزعق، ومن شدة نقمه على حمار سيد الحلاق، لم يستطع أن يحتمل حصرته، وفكها على عتبته. الوقت لم يكن متأخرًا حينما نظر في الساعة المعلقة ببدلتـه، وانتظر أذان العشـاء، لكنه -بدلا من ذلك- سـمع أذان ضفدع مؤمـن وكلابًا مـن المصلين يؤمنون. لما وصل إلى بيته، استقبلته العجوز بطبق من الماء الساخن، دلكت رجليه بالملح والليمون، قصت عليه أخبار القرية، والشوطة التي أصابتهم بعد فعلة نعمة وابنتها. العجوز كانت تعلم، لكنها انتظرت وصول زوجها، وبالفعل، بات يتجول في القرية، يفكر في حل لهذه المصيبـة. كان يعلم مكانة الديك عند أهل القرية، العرف أحمر، إنجليـزي، والريش صنعة ربانية، اسـتلهمها الخياطون في حياكة ملابس العذارى والعوانس، كل القرية تتبع وحيّ الديك.

وقف أمام الشـجرة العملاقة ورأى الغربان تسكنها. خطرت في باله فكرة، سيعيد ترقيع الجريمة. وعلى الفور، رجع إلى بيته، ارتدى طاقية حمراء، دخـل بصحبة العجوز إلى غرفة الديوك الثلاثـة، اصطفى أكبرهم عرفًا، وأعلاهم صوتًا. المشكلة الوحيدة أن عرفه لم يكن إنجليزيًّا خالصًا، لكن العجوز لحسته بالحمرة، وتناوبت على تدريبه خمس ليال كاملة مع زوجها، على حركات الديك المقدس، ووقفته الواثقة على السور، فأصبح يأكل في

طبقه، وينام في عشه، حتى ألفها، وصدقها. في صباح اليوم الثامن، صعد العم عليٌّ وزوجته العجوز إلى سطحهما، أخرجا الديك البديل من عشه، همس في أذنه، ثم وضعه على السور، فنظر إليهما الديك، كطفل في أول أيام روضته، ثم نظر إلى شجرة الغربان.. وقرقر.. فتورد وجه العجوز، خطا الديك على السور واثقًا، وقرقر كالوحي، فتخبطت الغربان، وهرب ملاك الموت. فتحت القرية أبوابها وأعشاشها، حمل الأطفال ألواحهم من جديد، وهرولوا نحو الكتاب مع ضوء النهار.

الكَفُّ

يد السّت ملفوفة بحرير، تحبُّ النساء مجلسها لأن وجهها مكشوف. تحيك أقدارهن في هدمة تلتف حول الخصور، تفصّل قمصان النوم بحمالات رقيقة، من الساتان، والشيفون. تجيد استخدام المازورة، وتكليف الملابس بالقطيفة. تتقن السرفلة والرسم على الصدور. في بيت ورثته عن زوجها، تعيش مع ماكينة تعمل بالزيت، وتلفاز ببطارية قديمة. يستطيع السائر جوار بيتها أن يشم رائحة عرس قادم. منذ خمسة أعوام بدأت الست في الاحتفال بالعرائس بطريقة جديدة، فتّحت أعين البنات على الحياة الأخرى بعد الزواج، علّمت النساء صنع الحلاوة، قص الشعر، وباعت أصابع الروج الفاقعة. تأتي الصبايا إليها قبل أسبوع من الزواج، وتتولى أنامل الست كل ما يلزم العرس. شرط أن تحمل العروس السَّبَت، وتسير على نخلة أمام عينيها، دون أن تقع في الترعة.

على هذه النخلة سارت عزة بثبات، تحمل فوق رأسها سَبَتًا مليئًا بأكياس السكر، والشاي. يتراقص السَّبَت فوق حَواية من القماش، وأمها تحمل ملابس العرس في سَبَت آخر. دخلت عزّة من الباب الخارجي بقدمها اليمنى، ومن بعدها الأم بزغرودة طويلة. استقبلتهما الست بصينية من ماء الورد ووضعتها على العتبة، خطّت العروس من عليها، وقبّلت يد الست. جلست جوار الماكينة استعدادا لتفصيل الملابس.

السّت تعرف طينة العروس من أول شق في هدمتها، من مسكة المقص، من لضمة الإبرة. اعتادت أن تفصّل ملابس العرس بعد قيام الليل، وعزة طينتها غريبة، لم تمر عليها من قبل، لم يجرحها المقص لتعرف أن العروس ستمر بأيام صعبة، بل كان المسك يفوح من ملابسها، وكان المقص ليّنًا، لا يحتاج لزيت ولا سنّ. بمجرد أن لمست الثوب ارتجفت، وأحست برعشة تسرب إلى دماغها، أمسكت المقص وبحثت عن العلامة التي وضعتها أثناء وجود عزة فلم تجدها، ولم تجد العلامات الأخرى التي وضعتها في أثواب القماش. وقع المقص من يدها، وأحست بالرعشة تزداد قوة، تسيطر عليها تمامًا، تزلزلها، وشعرت بمذاق علقم في فمها. حاولت أن تقوم من مجلسها لتشرب، وقعت على الأرض، تخشّبتْ عليها، وقبل أن تفقد الوعي سمعت زنًّا كصوت النحل في أذنيها، ولم تبصر نورًا؛ العرق أغشاها وبقّع وجهها بحمرة قاتمة.

لأسبوع لم تفتح بابها للزوار، لم تردّ على نداءات أقاربها، حتى ظنّت والدة العروس أنها ماتت. دارت تشمم الجدران وتسترق السمع. كانت رائحة المسك لا تزال تفوح من البيت، وتشعرها بالطمأنينة مع صوت إذاعة القرآن الآتي من غرفة النوم. السّت تشعر بأنفاسهم ولا ترد، تكرمش ثوب عزة في حضنها، تأكل وتشرب وتستلقي على سريرها، وتقول على الدنيا السلام. حتى جاءتها عزة أخيرًا بصحبة الأم والخالة، ونقرت على الباب ثلاثًا، وقالت بصوتها الرقيق «افتحي الباب يا ست رقية». قامت الست على الفور من نومها، وفتحت الباب بظهر مَحْنيٍّ، وشامة كبيرة ظهرت فوق حاجبها، ورقبتها مزيّنة بعقد من العاج. أحضرت لهن السَّبَت، وقدمت الثوب لعزة، واندهش الجميع برؤية أثواب القماش ممزقة، وبدلا من فستان العرس قدمت الست كفنًا للعروس. اشتعلت الأم من شدة الغيظ، هاجت تصفع الست الخيّاطة وتضربها، بينما ركضت عزة إلى البيت فَزِعَة، وحملت الخالة أختها مع سبت الملابس إلى خيّاطة أخرى، في بلد مجاور، حتى تأمن شر الأعين، والألسنة، والحكايات.

رأى الناس أن الست فقدت عقلها، ورأى البعض أن زواج عزة لن يدوم، وأشاروا جميعًا عليهم بزيارة المقابر ودهن أبوابها بحناء العروس، وكل شر زائل بإذن الله. لم تغادر عزة الفراش ليومين، وفي اليوم الثالث رقصت مع بنات خالتها، صنعت معهن الحلاوة، وقصّت أطراف شعرها، وأحضرت لها صديقتها الروج الفاقع من عروس سابقة. دقت الطبول

بعد المغرب، عـلى خصرها الذي اهتز في منتصف الدائرة، وبنات خالتها يصفقن أسـفلها. تعلو زغاريد النسـاء حولها، مع وصول حناء العريس عـلى رأس حماتها، ترقص أمام ولدها وتغني «ادلع يا عريس يا أبو لاسـة نايلون»، يطمئن قلب عزة تمامًا بعدما يجلس العريس جوارها ويهمس في أذنها «مبروك يا عروسة».

في حضرة النساء دهنت الأم كعبَي عزة وكفَّيها، ومن أراد من البنات، وهرب العريس منهن إلى الخارج. وبعد انتهاء الحفل أخذت نساء العائلة مـا تبقى من الحناء، وذهبن بعد منتصف الليل إلى الجبانة. خيط رفيع من الضوء يرشدهن إلى أبواب القبور، يضعن كفًّا من الحناء في منتصفها، مع السـلام على ساكنيها، وتمتمات أطلقنها عندما رأينَ ظل السـت تحت شجرة الجميـز الكبيرة. كانت تقف هناك ممسـكة بمقص. تقطع بعض الأوراق والأقمشـة، وبإبـرة لامعة وطويلـة تصنع عدّة أحجبـة وتبرطم بكلمات مسموعة. تجاهلتها النساء وابتعدن عن الجبانة، لكن عينيها ظلتا تراقبهن بفزع، وظلت أناملها ترتعش، لا تعرف ما الذي أصابها، وما اليقن الذي يمـلأ فؤادهـا. لم تعرف البلدة عنهـا الكرامة من قبل، لكـن فؤادها رأى جثمان عزة ممددًا على الخشبة، والنسوة تغسّلن جسدها الجميل وتتحسرن على شبابها وأحلامها. لم يكن هذا فقط ما سكن عينيها، ففي ليلة أخرى، رأت بنات خالتها يتشاجرن على روائحها، الملابس، الحلي، حتى ملابس عزة الداخلية تشاجرن عليها.

بدأت الأرض تجذب الست إليها، توسوس لها بالحقائق، تسمع ما يدور في السماوات البعيدة، وترى من وراء الغيوم والسحب ما سيكون، غدًا. الحقيقة ملك يمينها، بإذن الله، والبلدة تسمع همساتها، في الشوارع الترابية، وترى جلستها على الأرض مربعة أمام الصغار، تنادي عليهم لتقرأ الودع، والحصى، والتراب العالق في ملابسهم. الشيطان مسّها ووسوس في أذنها، لتظن في نفسها العرافة، ولم يكن لها مثل هذا الشأن. تجاهلها الكبار وقذفتها النساء في عرضها، أما الأطفال فقد سخروا منها، لكن هذا لم يمنعهم عن التجربة. طفل هزيل مثل عود قصب، وقف أمامها طويلًا ونظر إلى عينيها، وكانت تراه من العين التي بدأ البياض يسكنها، أما الأخرى فكانت جاحظة، ومخيفة، ويداها ظلتا ترتعشان، هناك ما يخيفها لهذا الحد. أشارت للصغير أن يقترب ففعل. جلس أمامها وبدأ يستمع إليها متوجسًا، ولمدة ظلت صامتة، لكن الصغير أنصت إلى أنفاسها اللاهثة، قبل أن تقول «لا أحد يصدق، لكنك ستفعل، عزة الآن في فراشها، ينفخ الله في جسدها بروح جديدة، سيكون ولدًا». لم يعرف الصغير ماذا يفعل، سوى الهروب بعيدًا، ولمّا وصل إلى بيت أم عزة، قال لها «يا خالتي!»، وحكى ما دار، فبدا عليها الغضب، وأرادت أن تذهب إلى الست لتفتح رأسها بحجرٍ؛ لا تزال توسوس بالحكايات عن ابنتها، بعد مرور أشهر على الزواج، لا تزال تفتي في غيبها، وتتقوّل على الله بأشياء لم ينزلها.

التقطت الأم طرحتها، خرجت من البيت والشياطين تقفز أمامها،

ترشدها إلى مكان الست. لم تتوقع أن تتعثّر بزوج ابنتها ليخبرها «عزة حامل»، ذهبا إلى طبيبة الوحدة، وأخبرتها بالبشارة.. هنا، أحست الأم بصوت يدعوها لتكمل الطريق، الشياطين حولها، واحد يتجسد في هيئة رجل مسن يمسك عكازا ويشير لها ناحية الجبانة، حيث تجلس الست. أخبرت زوج ابنتها أنها ستأتي، بعد قليل، لزيارتها، لكنها الآن ستذهب إليها بخطًى مرتبكة، وتجلس أمامها في خشوع. تخبرها الست أن ابنتها ستنجب ولدًا، وأن طاقات النور ستحل على أهله جميعا، وأنه سيتبوأ مكانة كبيرة بين الناس. تمر الأيام وتتحقق نبوءات الست لأهل البلدة، وكلها خير وبركة، يسرع الكبير والصغير في ودّها. يبنون لها حجرة صغيرة جوار المقابر. أرسلوا لها الطعام، دعوها في الأفراح والمآتم، التمسوا منها البركة والفأل الحسن.

كل يوم يمرّ على عزة يزيدها حسنًا، والعرافة قالت إن جمال وليدها سيتجلى عليها، يدوّر وجهها، ويطوّل شعرها، وكانت عزة تراه في منامها، شابًا جميلًا يحملها في ثياب العرس، ويضعها فوق هودج يحمله جمل بسنامين. وفي يوم صحت على طلق أسفل ظهرها، يشتد بسرعة بين الحين والآخر. جاءت أمها على الفور، وشممتها بيضة مقلية لتعرف إن كانت ستلد الآن، رغم أن الطبيبة أجزمت بذلك. اشتد الطلق على عزة، وكانت طلقة الرأس هينة رغم ذلك. رأى الجميع نورًا يخرج من فرجها، طاقة قدر أطلقت الزغاريد على حسّها، وصلت إلى الست وقادتها إلى باب البيت. دخلت

إليهن على عجالة، ممسكة بسُرَّتَين، ابتسمت عزة لَمّا رأتها، أغمضت عينيها للأبد. كانت ذراعَا الست مثل ميزان، في يدها اليمنى جلباب للوليد وفي الأخرى الكفن.

الغُولَة

سارت وسط أشجار الكافور والبوص المتناثرة على جسر الكعكة. تمسك بحبل يشنق حمارها، وفي يدها رضيع ملفوف كأوراق الكرنب. ظلها يتحسس البيوت والأخصاص، يتخطى النهر المردوم، يتموج مع الجسر رغم ظلمات الساقية وسخام الترعة. يقفز على الأسقف، يمشي بخفة على تكعيبة العنب ونسيج اللوف الأخضر، يتخطى أعواد الزنزل الممتزج بالطين والقش، يرح الخوف أسفل قدميها، يقول فيستمعون، يغضب فيقدمون أقطاف العنب وأكواز اللوف والعسل والأطفال والرضع.

على سلخة من طين وحشيش تترجل إلى السلخانة وتترك نعليها والحمار بالخارج. على نهر من الدم تشمر يدي الرضيع وتغمسها في جدار السلخانة. خمسة أصابع محناة بالدم كفيلة لطرد الفِناء. تعود إلى حمارها فتجده يشتقّ كالجمل، وبجانبه مقطف مملوء باللفت والسبانخ. أهل القرى كرام، لكن

صغارهم عفاريت. تضع الرضيع في المقطف وتركب الحمار. تتخطى عمار القرية إلى شرق الترعة، وظل الشجر يأكل وجهها. رأسها معصوب بتربيعة سوداء، ثدياها يتدليان من جلبابها الأسود. الصدر والأكمام من القطيفة، بكورنيش واسع مليء بالكسرات. يقلدها الأطفال هناك، بعينيها الواسعة السمراء ورمشها المنحول. جلدها منقرش بالبياض وفي ضبها ناب. تدور زينب في حلقة حول أمنا الغولة وابنتها المنكوشة، الغولة في قلب الدائرة، تنقي القمل، وعلى ظفر سبابتها يطقطق كالملح. زينب خفيفة كالريشة، تصطفي أشجار البوص وتختبئ خلفها. هناك، بودرة العفاريت كثيرة، وإذا بذّرت بنتًا ستهجم العفاريت عليها وتنهش جسدها طوال الليل. تغني البنات في سعادة ويعلو صوتهن فوق ماكينة الري: أمنا الغولة.. طقطقت الفولة!

أمنا الغولة تقترب والعين على سن السكين، في غمضة عين تهرب البنات وظلها العملاق يغطي كل شيء. عند تكعيبة العنب رأت زينب ظلها، بينما ذابت الأم المزيفة، مع الأخريات، في مياه الترعة. الغولة على حمارها تأكل ورق الأشجار، وحقيبة الصفيح أمامها. رأتها زينب تقترب، التقطت شقفة حادة، ودعت الله أن تخرم رأسها، أو توقعها أسفل أقدام الحمار فتركبها. تفرط أسنانها، تطحن أنفها، وتخلع شعر رأسها. هُدى ذات القمل، كانت برفقة زينب، تراقب المشهد، وترتعش.

اختبأت البنتان وراء نخلة، كتمتا أنفاسهما حتى تمر بسلام. هدى أخذت

الشقفة من يد زينب وهمست لها «هش!»، لكنها عندما رأت الغولة تدخل الشارع الضيق وتربط الحمار في عمود النور، لم تستطع أن تهشَّ، فرفصت وبللت بنطالها بالماء والطين. الأعين تبحث عنهما الآن، من منهما ستأخذ حموة الموس، وأي امرأة ستخرج الآن وتضع الطعام للحمار.. مرت دقائق وزينب تنتظر، وهدى تنتظر، والحمار ينتظر، إلى أن ظهرت خالة هدى بحزمة برسيم، ووضعتها أمام الحمار فارتفع النهيق.

هدى من وراء النخلة تسمع صراخ أمها، بين الحين والآخر، وترى خالتها تبحث عنها في كل مكان، وجدّتها تقف جوار الغولة وتغني على طبلها، تصفق فرحًا لقدوم المولود، وتنادي عليها: «تعالَيْ يا هدى، أحزمك، وارقصي لنا» أخوها سيولد الآن، وهدى كانت تحب الرقص كثيرًا، وزينب وجدت الفرصة أخيرًا لتهرب إلى أشجار البوص.

حفرت في الأرض وأخرجت كيس البودرة المدفون وراء البوص، ربما يأتي الدور عليها. سارت حافية على النخلة المصلوبة بين حافتي الترعة، وكادت أن تعبرها لولا امرأة قابلتها. وقفت في منتصف النخلة، قدماها ثقيلتان، التفتت إلى الجهة الأخرى فوجدت أمها تنتظر، اختل توازنها فوقعت في الترعة، اصطدمت بالقاع وملأ الماء البارد أنفها. روحها دودة رخوة وجسدها طين محروق. يد تعجنها ويد تخبز ملامحها، ويد تربّط الأحبال. رأت أمنا الغولة في بيت هدى. الأم ملقاة على الأرض وتحتها رداء قديم مبطن بالبلاستيك، مفشوخة الساقين، ولفيف من النساء معها. تضغط

الغولة على بطنها، فتعض الأم على قميص هدى. تأمرها بكتم الأنفاس. يلمع العرق على جبينها، تطلق، تسمع بكاء ابنتها المغدورة، تأتيها طلقة وراء أخرى، تسمع نداءات ابنتها من جديد، يطش قرنها في وجه الغولة فتمد يدها وتشد رأس الوليد، عندما يرى وجهها يصرخ ملسوعًا. تخرج الموس من الحقيبة وتقطع حبل سرته ثم تربطه بفتيل من الصوف. تنظر الأم إلى رضيعها بنصف عين وتقول إنه يشبه هدى. تشير الجدة إلى الغولة بقرف، فتمسح الدم العالق على وجهها وتمص إصبعها وشفتيها ثم تقرب الوليد إليها، تظن زينب إنها ستأكله. تصرخ، تنظر الغولة إليها، فترتعب. تمسكها إحدى النساء من الخلف وتقيدها، تحملها إلى أمنا الغولة. زينب بكت حتى السعال عندما رأتها عن قرب، نابها أزرق، شعر أنفها طويل مبتل. شدت إحدى النساء بنطال زينب، وأمسكت أخريات بيديها، فتحت المكينة ساقيها. اقتربت الغولة بموسها وحشرت قميص هدى في فمها.

بعد قليل، شعرت بماء الترعة يخرج من فمها مع ديدان وأسماك صغيرة، وسمعت بكاء أمها وصوت غليظ يخبرها أنها حيّة، وأن ماء الترعة، فقط، تسلل إلى رأسها وأفسدها. شعرت بوحيٍ يناديها «تعالي إلى الدوّار». تسللت خارج البيت. مشت على الجسر بساقين متعبتين، ونصف قمر يؤنسها. بومة على الأشجار تراقبها وخفاش يدلها على الطريق. دارت مع الجسر، حافية القدمين، على سلخة من تراب وحشيش، دفعت باب الدوّار ووجدت المكان ممتلئًا بالحجاج، بنات كثيرات تعرف أسماءهن، يدُرْنَ مع الخفافيش

حول أمنا الغولة، كلهن يشبهونها، بشعرها المنكوش ونابها الأزرق. كادت زينب أن تصرخ، وبدلًا من ذلك سـمعت طائـرًا يصرخ بصوت عال في صدرها بالملك لك لك لك لك، مع أصوات الترانيم والصلوات من حولها. ورأت جلدًا منقرشًا بالبياض يكسوها ونابًا وحشيًا ينبت في فمها. ومشت بخطى بطيئة حتى وقفت أمام أمها الغولة، وألقت عليها الســلام.

الإبْريق

اليوم هو سبت البِشارة؛ فوق أسطح البيوت الطينية ملاءات بيضاء، تنشرها النساء فوق واجهات البيوت، وعليها بقعة كبيرة، فعلها الرجال بالليل. كل امرأة تتفاخر برَجُلِها تحت عين الشمس، وأمام أعين الجيران. تدق الأهوان سبع دقات بالعدد. تُملأ الأباريق بماء الورد، وتوضع على صينية نحاسية في المنادر وقاعات النوم. تبخّر البيوت باللبان الذكر، استعدادا لمجيء "أم قويق"، ستعدل الميزان. كل النساء في انتظارها.

عندما تتجلى، يحرّم الجدل على الرجال وتتكلم النساء، يرتدين الجلاليب والعباءات الصوفية، ولا يرتدين حمالات الصدر. يرأسن مجالس الرقص والغناء، يطبخن الكوارع ويخبزن الفطير المشلتت. لا تضاجع امرأة رجُلَها. لا يقربها ولا يشم ريحها. يشرب الرجال الماء الوفير، من الإبريق، كل ليلة، ولسوء حظ نجية لم تجد بشارتها؛ صحت من النوم تتحسس السرير

الجاف، وتنخس رجلها حَرْبي بقوة. عرف أن هناك مصيبة حطّت على رأسه، أدركها مباشرة عندما قفز على الأرض ونظر إلى سريره، وبدأ يرجوها أن تستره، وألا تنشر الملاءة نظيفة، ونجّية امرأة مؤمنة، لا تخالف الطقوس ولا تتعدي على حرمتها. حاول أن يفعلها، اقترح على نجية أن تفعلها، لكنها انتزعت الملاءة، ونشرتها على سطوح البيت. خبأتها وراء ملاءة أبيه، ظنّت أن الأعين ستغفلها، وأن رجُلها قد ينجو. لم يستطع معارضتها، فالأسبوع أسبوعها، أما بقية الأيام فيملكها ويمسكها من لجامها. خرج غضبانَ، مشى في الشوارع لا يعرف إلى أين، والريح شديدة، تحمل أسرار الناس معها. على لسان جارته انتشر خبره، صار لبانة تلوكها أفواه النساء. أعين ترصده، أعين واسعة، تعدّ خطواته. أنفاسها في الهواء، أم قويق. الكل يعرفها، ولا يستطيع أن ينكرها أحدٌ. في الهواء رائحة تشبه الكمون، تفوح من الأشجار والنخيل، ومن أبراج الحمام والزرائب، كل شيء في القرية يعلن عن وجودها، حتى السماء أمطرت ورعدت، على رأس حربي، فقرر العودة إلى البيت مختبئًا أسفل سعفة نخل، آمنًا من المطر ومذعورًا من الطقس: سعف النخيل.. في أيدي الجميع، الصغار يتسلقون النخل، وكل فتاة تنتظر غصنها. موكب العجائز اتجه إلى شجرة الكافور العظيمة، جلست النساء حولها متشابكة الأيدي، ومكشوفة الرأس. أغمضن أعينهن، وبدأن في الغناء والتمايل حولها، صوت جميل يعلو فوق صوتهن، لأكبر امرأة في القرية، تجلس أمام الشجرة، تتمايل يمينًا ويسارًا، كطائر يعرف

أسرار السماء، تطلق التسابيح والصلوات بصوتها الحلو، حتى أظلمت الشمس، وظهر القمر بدرا فوق شجرة الكافور. لمس نوره أعين النساء حولها، فأطلقن الزغاريد، ورفعن سعف النخيل الذي امتص الضوء، وأنار الطريق إلى المندرة الكبيرة. النساء والصبايا انتظرن الزغاريد، وقفن على أسطح البيوت حتى رأين السعاف المضيئة، ودقت الأهوان مع الطبول، وسبعة من النساء رقصن إلى المندرة.

الأصوات هزت رأس حربي، صوتٌ دافئ أمره بالمثول أمام شجرة الكافور العظيمة. لم يستطع تجاهل الأمر، وجد نفسه يشرب من الإبريق ثم يخرج من البيت، يتخبط في الحوائط ويتعثر في جرائد النخيل الملقاة في الشوارع، حتى رأى سعفة مضيئة، تتبعها نحو الشجرة، كاد يلمسها لولا يد العم التي امتدت، نهَرَه قائلًا "عليكِ أن تهرب، أيام وتنتهي الخرافة". كشك مهجور في آخر القرية، هناك أخذه العم، وهناك سيعد حربي الأيام ويهرب من الظلال، وظلها على الحائط، أم قويق تريده، تنتظره، غيط القصب يصدر همسات، يتلفت حربي في كل مرة يحاول فيها التبول أمام الحائط المتهدم. يقف لمدة طويلة، ويشعر بسن موس حاد، فتنزل قطرة أو قطرتان بالكاد. يفترش على الدكة في انتظار الشمس، لكنها تظل على غيابها. ليلة بعد ليلة ولا أثر للضوء. يأتي العم برفقة بعض الرجال، كان عددهم اثنى عشر رجلًا، معهم العريس الجديد، سيدخل على ابنة العم في نهاية الأسبوع، ولابد من دم ليطرد الشر بعيدًا.

جلسوا بالقرب من الكوخ والجوزة في يدهم، تنتقل من رجل إلى آخر. يصطفون على جذع نخلة ملقى بالعرض، وحربي في منتصفهم. يأخذ الجوزة ويشد الدخان. لا يسعل، لا يبدي فَزَعًا، لكنهم يعلمون ما في صدره. مسكين لا يقدر على التبول، مريض، وليس على المريض حرج في وقت غير الآن. يقول أحدهم مهونًا "لا تصدق حكاية أم قويق، إنها خرافة، ندع نساءنا تفرح وترقص، فينسين وجودنا قليلا". رغم ذلك يفتخر كل رجلٍ بالبقعة الكبيرة التي تركها على الملاءة البيضاء، يقول العم "ابنتي، رفعت ملاءتي دون أن تتقزز، علقتها عاليًا"، حلقت الحمامات فوق الملاءة، في السماء، وسبحت باسم الله، لم تسبح باسم أم قويق. قال رجل "لأنها كذبة"، سنوات قديمة والقرية تداوم على هذا الفعل، لم يشهد أحدٌ تجليها، سكن الكفر قلوبهم، لكن ألسنتهم ظلت على خرسها، لم يجرؤ رجل على الصراخ. حربي وحده من صاح "إذا كانت تريدني فلتأتِ إليّ، تعالي وخلصيني من آلامي". بلورات صلبة صغيرة في مثانة الرجل، بلورات من ماس، أو ذهب، أو ملح، تريدها لنفسها، أم قويق، العم أخذ الجوزة وقال "لن تأتي إليك، لا تفزع، سنظل معك الليلة إلى نهايتها"، لكن الرجال، مع انطفاء الحجر، شعروا برغبة في النعاس، وأرادوا أن يهربوا بعيدًا عن ضوء القمر، الماسي. وحده العريس ظل مع حربي، وقال "لا تخف، سأقودك إلى كوخك ولن تأتي إليك"، لا تخرج أم قويق إلى رجُلَين، تخاف الأرقام الزوجية، وتحب ما هو مفرد. لا خوف عليهما الآن، فالله معهما. أسفل ضوء القمر، في منتصف الطريق، رغم أنفاسها الساخنة التي

تفوح من كل مكان، ولا مكان أو زمان يتسع لها. قال العريس "سأنتظرك في عرسي، سنطلق النيران ونرقص بالعصيان معًا"، قبلة تركها العريس على خد حربي، وقال "سأباركك، وأنتظرك لتباركني"، لم يطل الطريق بعد هذه القبلة، وصل كل منهما إلى مراده.

عاد العريس وحده من الطريق، يدندن لحنًا قديمًا. لم يشهد أحدٌ حربي. لم تنتظره نجية في العرس، رقصت مع النساء، والأعيرة النارية في الهواء، الرجال يضربون بعضهم بالعصيان، والعم يجلس فخورًا بما فعل، عذراء هي الابنة، والليلة ليلتها. ملاءات بيضاء نشرتها النساء فوق البيوت، واليوم يرتفع المنديل بالبقعة الحمراء.

الوَليُّ

المقام غرفة على المحارة، تتسع لضريح العارف بالله سيدي عامر، وسرير حديدي ينام عليه الشيخ النوبي. مشربية على رأس الباب تُدخل الهواء لهما، ونافذة من الحديد المفرّغ تطل الشمس منها كل صباح، ويسترق الصغار منها النظر، ليطمئنَّ الناسُ أن الشيخ وعباءته في الداخل. يأتي الناس كلَّ جمعة بعد صلاتهم في المسجد المجاور، يحبُّون على يد الشيخ ويقرأون الفاتحة لسيدي عامر، ويدعون لهما بدوام القرب. الشيخ النوبي يحب الوصل، لكنه - الآن - لابد أن يزيل العباءة من فوق الضريح، يلتقط عكّازه المتشعّبَ، ويخرج من الغرفة متجها إلى البلدة، وهو أمر لو تعلمون عظيم.

الريح في الطريق نقلت الخبر في غمضة عين. تسارع الناس إلى بيوتهم، وأغلقوها وراءهم جيدًا. العين الوحيدة التي يسمح لها بالرؤية هي عين رجل البيت، يقف على السطح، ويراقب من بعيد الشيخ النوبي، وخطى

عكازه ذي الثلاثة أصابع. أوراق الأشجار الصفراء تسقط على شال الشيخ، وتكسو الأرض، أصوات تهمس من التراب، ليست صرخات، ولا صلوات، بـل مزامير، وطبول احتفال تدق، مع قلوب خلف الأبواب. حتى الآن، لن يشـير بعكازه إلى باب بعينه، لا يزال يعفِّر الطريق بمشية بطيئة، تلهث وراءها أنفاس الناس. يعرف الشيخ الأعين التي تترقب عكازه، يستطيع أن يشفَّ الأبواب والنوافذ بعينيه، لكنه لا يدخل - أبدًا - البيوت دون استئذان، للبيوت حرمة لا يتعدَّاها أولياء الله الصالحين، وهو ضيف ثقيل رغم ذلك، لا يكتفي برشـفة شـاي كبقية الناس عندما يزورون بعضهم البعض، لكنه يرتشف كوب الشاي لآخره، لآخر نفَس.

توقَّف الشيخ النوبي أخيرا أمام عتبة "الشحات"، رجل يفلح الأرض، ولديه ثلاثة ذكور وامرأة، وبهيمتان. كلهم يختبئون في آخر البيت، والشحات مصلوب على السطح، يفكر في مصيره. ماذا لو اختاره الشيخ للضيافة، ماذا لـو خلع العباءة ونفضها أمام عتبته. سـيجلس أمامها ولن يرحل. يا لهذا الرجـل، لا يدري لماذا يحبه الناس هكذا؛ لا ينكر أبدًا كراماته التي تتجلى في كل بيوت البلدة، كان يفعل مثلما يفعلون، يصلي في جامع سيـدي عامر، رغم المسافة، يحبّ على يده كل جمعة، ترسل امرأته الشاي والسكر، والخبز الملدّن، وكنكة من اللبن الدافئ كل ليلة. الشحات كريم، لا يعترض على أفعال امرأته، كل يوم تحكي له كرامات الشيخ، وهو -بأذن من طين- يستمع لحكاياتها. بالأمس دار الحديث حول حريق سيندلع من البر الشرقي، تمسك

النار الغاضبة في أشجار الموز، تصل إلى البيت الفلاني، بعدها البيت العلّاني، ينتهي الشيخ من الحديث فيسرع الناس بالجرادل والمقطاف، يصِلون ويرَون ألسنة النار تشتاط، تأكل جدار البيت الأول وتصل إلى البيت الثاني. أطعم الناس النيران وسقوها حتى اختفت. استطاعوا انقاذ البيت والبهائم، وعدّوها من كرامات الشيخ النوبي التي لا تنتهي، منذ جاء إلى البلدة، منذ سبعين عامًا، قبل أن يولد الشحات، وقبل أن يولد أبوه أو جده. هو لا يقدر على ضيافته اليوم، ولا بعد سنة من الآن، لن يكمل الأربعين حتى يكلِّف امرأته فوق طاقتها، ماذا ستفعل المسكينة دونه؟ سؤال يأكل رأسه، والشيخ ينفض عباءته أمام البيت، وينادي بصوت أجش أن يفتح الباب؛ يفتح الله أبواب الجنة في وجهه.

الشحات لا يريد أن يفتح الله أبواب الجنة، أو النار، لا يريد أن يفتح الباب لهذا الشيخ النوبي، لا يريد لامرأته أن تشق صدرها حزنا عليه، ولا لصبيانه أن يروه مُخشبًا، لا يستطيع أن يحمل أحدهم على ظهره، يريد أن يلعب الآن معهم "ثبت صنم"، وتتسلل امرأته بخفة، وتضربه بكفها الطفولي. ماذا يدور في عقلها الآن؟ نزل الشحات من السطح، وتوجَّه إلى غرفتهم، وجد الصبية يحتضنون أمهم في خوف. تساءلت إن كان وقف على عتبتهم، أخبرها أنه فعل. أبعدت الصبيان من حضنها، تساءلت إن كان خلع العباءة أم لا، أخبرها أنه فعل. تسمَّرت كثيرًا، دعت الله في كل صلاة، ومع كل كوب لبن ترسله للرجل، ألا يفعل، وأن يجعل يومها قبل

يوم زوجها. كانت خائفة، احتضنته، "ماتفتحش الباب يا حبة عيني". المرة الأولى التي يبكي فيها الشحات أمامها، احتضنوه وتمسَّكوا بجلبابه عندما توجه إلى الباب، لم يقدر على جرِّهم؛ وقَع، والشيخ النوبي يستمع لما يحدث، يحثه على وداعهم، والخروج إليه بجلباب أبيض معطر بالمسك، أمام أهل البلدة الذين تجمَّعوا بالقُرب من بيته، يراقبون في حزن، ويحثون نساءهم على عمل صواني الطعام التي تليق بليلةٍ هذا الشحات الطيب.

الباب ظل مغلقا لثلاث ليال، والشحات، في الداخل، يأكل الفتات مع أولاده، ويشرب من طرمبة دقَّها حديثا في حوش البيت. الشيخ لم يتزحزح من مكانه، تأتي الصبايا بصواني الطعام، عليها الأرز والخضار، وهُبَر من لحم محمَّر. يراقب أهل البلدة الشيخ ويتمنَّون أن يمَلَّ جلسته، ويترك الشحات يربِّي أولاده. يسألون عن أسباب اختياره؛ رجل غلبان، وله واجب عند كل نفر منهم. ربما لأن الدنيا لا تترك إلا الفاسد. يوم بعد يوم تأتي الوفود إلى الشيخ النوبي، ويعقدون المجالس، ويعرضون أعمال الخير عليه، اقترحوا أن يشيدوا مقامًا جديدًا يحمل قبة خضراء لسيدي عامر، وأن يرفعوا أعمدة الجامع، يحفروا الأرض، ويوصلوا الماء إلى الميضة. الشيخ يعرف أن نيتهم ليست خالصة لله، رغم ذلك وافقهم على الأمر. بعد عشرين يوما، وعلى الفور، شرعوا في أعمال الهدم والبناء والحَفْر، حتى النساء شاركن الرجال في حمل قصعات المونة، والأطفال في حمل القوالب. والشحات يجلس مع أهله، يعرف ما يدور بالخارج، يمسك كسرة خبز. يغمسها في قعر طبق

مدهون بالمش السائل، ويعطيها لصغيره. يسأل عن زوجته، لا يعلم الأبناء أين ذهبت. للحظة فكَّر أنها خرجت تستمح الشيخ حتى يرحل، أو تعرض عليه أن يأخذ حياتها، فتصير خادمة في مقام سيدي عامر. ارتعش الشحات وقام من جلسته، استند على ابنه البكري، والصغير يلعب في ذقنه النابتة، لم يجدوها في المطبخ، ولا على السطح، وجدوها في شونة البهائم، تجلس في مربطهم، تمسك طبقا بلاستيكيا وتأكل المكمورة.

أربعة أيام مرَّت، تم تجديد الجامع، والميضة. طلب الناس من الشيخ النوبي مفتاح غرفة المقام. كانوا يعرفون أنه سيرفض طلبهم، لكن ربما يأتي بنفسه ويفتحها، ربما ينشغل مع ضريح سيدي عامر، وينسى أمر الشحات. وهو بالفعل ما حدث، مشي الشيخ معهم، ووصل إلى المقام، ولم يضع العباءة على الضريح. وفي الوقت نفسه تسلل مجموعة من الرجال إلى بيت الشحات، يحملون البطاطس والخبز، وأنبوبة من الغاز الطبيعي، وبعض الأطعمة الأخرى. رمى رجل منهم طوبة على سطوح البيت، والبيت مقطوع، ليس جواره بيت ينطون إلى بيت الشحات من خلاله. ظهر إليهم بوجه شاحب، فأعطوه إشارة الأمان، نظر إلى مقعد الشيخ ولم يجده في مكانه، هرول إلى باب البيت في اللحظة التي كان الرجال يحملون الضريح ويخرجون من الغرفة، رآهم الشيخ من حجاب الغيب، يتسللون إلى بيت الشحات ويعطونه الطعام، رآه يجُرُّ شِكارة من البطاطس، وتمسك امرأته بطة سمينة. وفي لمح البصر وجدوه أمامهم؛ مشى على ماء الترعة، ومن

معه الله يمشي على الماء ويمشي على النار. أغلق الشحات الباب مفزوعا، وهرول -مع صغاره- إلى الغرفة البعيدة، وارتفع صوت الشيخ مهددا "قسمًا عظمًا أخبط على بيوتكم واحد واحد". لأول مرة يرونه غضبانَ هكذا، كان النور يطل من عينيه دائما، والابتسامة البشوشة على وجهه، خاف الناس من فعلتهم، التمسوا منه العفو والسماح ولم يحاولوا إطعام الشحات وأولاده مرة أخرى، حتى مرت أربعين ليلة على انتظار الشيخ، أمام عتبة الشحات.

في ذلك اليوم كانت الشمس عفيّة، رغم الخريف. وبدا التعب على الشيخ النوبي. رآه الناس يتنفس بصعوبة، يقف مستندا على عكازه، ينفض التراب من عباءته، ويبتعد عن بيت الشحات، بخطوات بطيئة، والغضب يسكن صدره. لم يتخيل أن يرفض الشحات ضيافته، يتركه على باب البيت أربعين يوما، هذه كبيرة. لم تحدث منذ حطّ على البلدة، منذ سبعين عاما، ثمانين عاما، تسعين عاما. سنوات لا يذكرها، مضت دون إهانة. بصق الشيخ على الأرض، وبرطم بكلمة ما. سمعه الناس جيدًا. قال "بخيل" وبصق على الأرض، وعاد إلى المقام، وتساقطت أوراق الشجر. ارتفع الصراخ والعويل من بيت الشحات، واجتمع الناس في وقار، ليشربوا الشاي.

المؤلفة في سطور

أميرة بدوي، قاصة ومترجمة مصرية، من مواليد محافظة المنوفية، 1991.
تخرجت من كلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزية، جامعة القاهرة. فازت بمنحة آفاق للكتابة الإبداعية عن مجموعتها القصصية ست زوايا للصلاة. وفازت بجائزة مركز طلعت حرب الثقافي دورة 2018، وفازت في جائزة مشروع القصة العربية دورة 2017، وتُرجمت قصتها القصيرة "شق الجبانة" إلى اللغة الإسبانية والإنجليزية من قبل المترجمة الإسبانية، Rita Tapia Arigur.
كتب عنها الناقد الإسباني Francisco Martinez Bouzas دراسة بعنوان "السرد النسائي المعاصر في مصر".
تناولت الباحثة د. مي طعيمة، المدرس المساعد بقسم المسرح بكلية التربية النوعية جامعة المنوفية، قصتها القصيرة: فوق النور، في رسالة دكتوراه بعنوان "فاعلية برنامج تدريبي قام على المسرح في تنمية المهارات الاجتماعية وتحسين التوافق النفسي لدى الأطفال ذوي طيف التوحد".

ترجمات تحت الطبع:

- الترجمة العربية لرواية تائهة في الحي الإسباني - هيدي غودريتش. عن منشورات إبييدي.
- الترجمة العربية لرواية غرفة يعقوب - فيرجينيا وولف- عن منشورات إبيدي.

للتواصل مع المؤلفة:

ameraabadawy@gmail.com

ست زوايا للصلاة

كان وجهها كالثلج، تستلقي بجسدها الخشبي على أريكة جدي، وأربعة من النساء يغسلونها بماء الورد. ويمشطن خصلات شعرها في دلال. ليلى الجميلة، طفولتي التي أعرفها، غنوة الجرف والناي، صوت الليل في صدري، امرأة تحشي فمها بمنديل أبيض، ويحزمونها من وسطها، ومن رجليها، ومن صدرها، كلما نظرت إليها اختنقت. التراب يتسرب إلى أنفي وفمي، أسعل، أبكي وأنا أحمل نعشها، والرجال من خلفي يحملون شعلات النار، والنساء تشق صدورهن ليخجل ملاك الموت. وصلنا إلى نخلة الصلاة، أمسكت فأسًا وضربت الأرض ثلاثًا، ووضعت ليلى أمامي، أقمت صلاة الجنازة. لم أرفع رأسي عندما ظهر الثعبان في التكبيرة الثالثة، ونزل بها أسفل الأرض، احتضن ليلى الجميلة وأكل لحمها، سمعت صرختها قبل أن تغيب للأبد. لم يخرج الثعبان بعدها، كلما جاع ألقينا في بطن الأرض ميتًا جديدًا.
صرنا ننجب الأطفال من أجل ذلك.

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف



